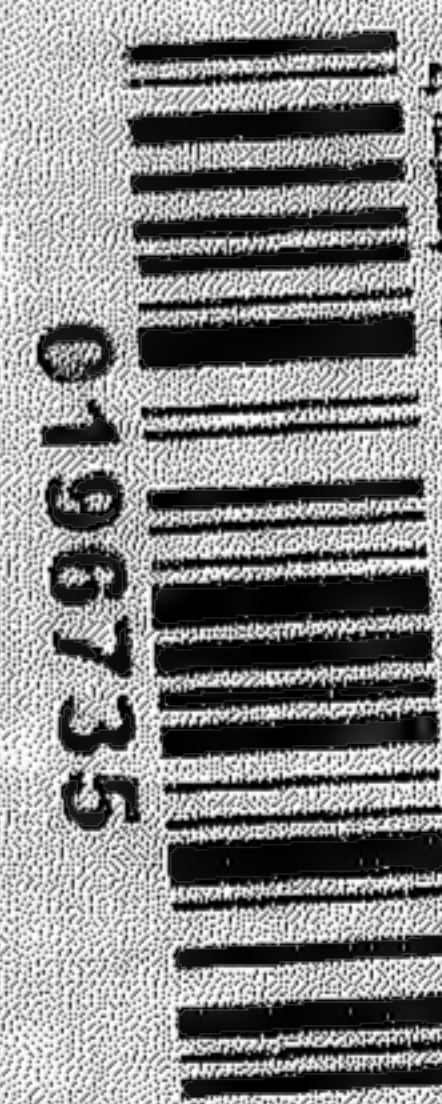


مختار الحسيني

الصراع الفكري بين المادية والروحانية

تقديم
السيد/كمال الدين رفعت
وزير العمل



0196735

Bibliotheca Alexandrina

K

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د. رشيد سالم الناضوري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

up

مختار الحسینی

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الصراع الفكري بين المادية والروحانية

1463

(1) 1914
 (2) 1915

تقديم

السيد / كمال الدين رفعت
وزير العمل



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Beitak's Memorandum

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية

رقم التصنيف : _____

رقم التسجيل : ١٢٩٦٧

الناشر

والله اعلم بالصواب
٥٩ صلاح الدين بن ٥١٣٢

22

مقدمة

السيد / كمال الدين رفعت

وزير العمل

لم أكن أتوقع عندما قلبت أصول هذا الكتاب بين يدي أنني سوف أقبل على قراءة صحائفه بذلك القدر الكبير من الحرص والاهتمام .

والكنتى عندما تأملت فى العنوان الذى اختاره الكاتب لذلك البحث ، وعندما تدبرت الموضوعات التى يعالجها وجدت نفسى وقد شغفت بقراءته بتعمق وحرص شديدين .

ولقد كان أول ما استدعى منى التفكير والتأمل وبعث فى نفسى خواطر كثيرة هو العبارة التى تخيرها الكاتب عنواناً لهذا البحث الجاد . فمنذ أن كان الإنسان . . . ومنذ أن كان له عقل يدبر به شئون حياته وهو يفكر فى ماهية وجوده . . . يفكر فى الأصل الذى يعود إليه بجميع مظاهر وجوده . . . ولقد كان أكثر شىء جدلاً بالنسبة للفكر الإنسانى هو مظهر ذلك الوجود من ناحيته المادية وفوق المادية .

جار الإنسان فى معرفة الأسباب كما جار فى تعليل المسببات . . . لجأ إلى الخيال فلم يسعفه الخيال . . . ثم لجأ إلى الخرافات فلم تغنه من الحق شيئاً .

بحث الإنسان وراء حقيقة وجوده المادى وتزاحمت فى رأسه الأسئلة والاستفهامات ولكنه ظل أزماناً طويلة وهو يخطئ فى محور من الأوهام

والخرافات حتى شاء له القدر أن يصل إلى نتائج يرضى بها عقله وتسكن إليها نفسه . . . استيقن الانسان ان مظهر وجوده المادى يرجع إلى عناصر معينة تعود بأصلها هي الأخرى إلى عناصر الأرض التي أنبتته وأنه كان النتائج النهائية لسلسلة ترجع بمذورها وحلقاتها الأولى إلى الماء والتراب وتنتهى فى طورها بأعظم كائن على وجه الأرض ، كائن فذ عجيب له من الملكات والقدرات ما يحار هو نفسه فى تعليل أسبابها .

ثم ينظر الانسان بعد ذلك إلى مظهر وجوده غير المادى أو فوق المادى فيجد فى نفسه سرا رهيبا حول هذه المادة الصماء إلى ذلك التكوين العجيب . . . السر الذى لا يزال يحار فى معرفة أصوله وقواعده ولا يزال عاجزا عن الكشف عن أبعاده وأغواره السحيقة .

لاذ الانسان فى محاولاته لتفهم ذلك المظهر فوق المادى كما سبق أن لاذ فى محاولاته لتفهم أسرار المظهر المادى بالخيال فلم يسعفه الخيال .. لجأ إلى الأوهام والخرافات فلم ترض عنها نزعاته العقلية وملكاته الفكرية . ومضى على الإنسان حين من الدهر تتخطفه الأوهام وتتنازع الخرافات وأبواب الحقيقة موصدة فى وجهه لا يجد لها من نافذة يطل منها على الحقيقة .

عندما وصل الانسان إلى بعض النتائج التى تفسر له مظاهر وجوده المادى واستطاع أن يتعرف على عناصر تكوينه الحيوانى ثم على القوانين والسنن التى كانت الأساس فى عملية بناء جسده المادى فى الوقت الذى لم يستطع بعلمه المادى المحسوس أن يصل إلى مثل تلك النتائج تفسيرا لمظهر وجوده فوق المادى أنكر فريق من الناس أن فى الانسان تلك الطبيعة الازدواجية وأنه مكون من جسد مادى وشىء آخر فوق مادى وكان ذلك راجعا إلى عجزه عن الوصول إلى نتائج علمية توضح له ماهية ذلك الوجود فوق المادى وتبين له أصوله وأبعاده وتظهر له أغواره وأعماقه . وهو فوق ذلك استطاع ان يعرف بتجربته أن مصير

ذلك المظهر المادى إلى فناء وعودة إلى الأرض التى نبت منها نباتا وعجز فى نفس الوقت عن معرفة مصير ذلك المظهر فوق المادى بعد زوال الجسد فانكر ذلك الفريق من الناس ذلك المظهر واعتنق المذهب المادى الذى ينكر على الانسان تلك الطبيعة الازدواجية .

ان كل مظاهر الوجود البشرى انما تستمد من أصل واحد هو الانسان نفسه وليست من هذه المظاهر ما ينزل عن حد الضرورة ليكون أحدها أكثر ضرورة من غيره وليس منها ما هو أقرب إلى الكماليات عن الحاجيات فان تلك المظاهر تنزل كلها منزلة واحدة وهى علاوة على ذلك فانها فى نفس الدرجة من الحقيقة فلا يمكن أن نقول ان المظهر المادى حقيقة أظهر من حقيقة المظهر فوق المادى لأننا استطعنا أن نصل بالنسبة له بأسلوبنا العلمى المادى إلى نتائج وان المظهر فوق المادى انما هى حقيقة تلى الحقيقة الأولى فى المرتبة الأولى والأهمية كما لا يجوز أن نقول بعكس ذلك لأن كلا المظهرين إنما يكونان الانسان .

ولما كانت مظاهر الوجود البشرى تذبح كلها من أصل واحد هو الانسان نفسه فانه لا يمكن أن نتصور أن يكون هناك فيما بينها تجاليد وعقائد او تصارع وعداء . لأن الشئ الواحد لا ينتج عنه مظهران متضادان وإلا كان الانسان عبارة عن مجموعة من المتناقضات .

وإذا أخذنا بعض صفات الكائن البشرى مثلا نضربه للتدليل على صحة ما نقول فاننا نجد أن العلم صفة عقلية أصبحت من ضرورات المجتمع وان كان العقل وهو نبعها الفياض صفة من الصفات الأصلية فى حياة الانسان الاجتماعية . . . وكذلك الدين فهو صفة تستمد مما فوق للعقلية البشرية ليسد فراغا فى الاجتماع لا يسده العلم ، وبين العلم والدين فجوة لا تسدها إلا الفلسفة . . فهذه الصفات الثلاثة . . . صفة أن الانسان يعلم وصفة أنه يتدين وصفة أنه يتفلسف ليوفق بين طرفى العقل وما فوق العقل تعتبر كلها صفات فطرية فى الانسان

أصبحت بطبيعتها ضرورة اجتماعية ولا يمكن أن يكون بينها شيء من العداة أو الصراع لأنها مستمدة كلها من شيء واحد هو الطبيعة البشرية ذاتها .

وإذا كان هذا هكذا فكيف نتصور أنه يوجد صراع بين المظهرين الأساسيين والعنصرين الكليين اللذين يتكون منهما الإنسان : عنصر المادة أو مظهر الوجود المادى وعنصر الروح أو مظهر الوجود فوق المادى . وإذا قلنا بذلك نكون قد وقعنا فى خطأ كبير ونكون قد اقبرنا أن الإنسان الذى خلق فى أحسن تقويم وأسمى مراتب الدقة هو عبارة عن هيكل من الفوضى المنجذرة .

لذلك كله كان أول ما استرعى منى التفكير والتأمل وبعث فى نفس الخواطر هو العبارة التى اختارها الكاتب عنواناً لهذا البحث . . . الصراع الفكرى بين المادى والروحية . . . لأن ذلك الصراع لا يمكن تصوره إلا على أساس أنه من ابتداء العقل البشرى والفكر الإنسانى عندما لجأ الإنسان إلى نفسه محاولاً تحليل أسباب وجوده ومظاهر ذلك الوجود وغايات الحياة البشرية ، وعندما حاول كذلك أن يبحث لنفسه عن النظم والقوانين التى تعينه على الحياة فتقضى على أسباب شقاوته وتدله على طريق سعادته .

ونحاول فى هذا البحث القيم الوصول إلى أحسن القوانين واكمل النظم البشرية التى تكفل معادة المجتمع البشرى أنما هى محاولة تسير مع ركب الفكر الإنسانى الذى يسعى إلى إيجاد أصح الأساليب وأدق النظم التى تكفل له حياة إنسانية كريمة . . . قوانين ونظم تؤمن بالطبيعة الإزدواجية فى الكائن البشرى فتقوده إلى رفاهية الجسد وسعادة الروح . . . عسى أن يجد القارىء فى موضوع الكتاب ما وجدته من قيمة فكرية وفائدة موضوعية وحسن عرض وسلامة منطق وحيجة .

مقدمة المؤلف

الانسان كواقع مادي له أبعاد وحدود يشغل بها حيزاً من هذا الكون المتراعى وهناك في اعماقه كثير من الأحاسيس والمشاعر التي تكون فيه الجانب الحسي والعاطفي والغريزي وتؤثر في تفكيره وتشكل من سلوكه وتدفعه لانتهاج مناهج معينة قد تكون تعبيراً عن دوافع داخلية أو انعكاساً لمتطلبات معينة تضطرب في نفسه وتدفعه لاشباعها أو تحقيقها .

لهذا نجد الانسان في هذا العالم وهو في محاولات مستمرة لفهم هذا الوجود الذي يحويه وهذا العالم الذي يشهد دهشته بتباين محتوياته وتغاير ظواهره وغرابة أطواره وغموض أسرارهِ فاندفع بطبيعته نهماً بلمس المعرفة واليقين ليصل نحو استخلاص نتائج لها تساهم في تحقيق وجوده واستمراره في مسيرة تلك الطبيعة الغامضة .

وبالتمعن في هذا السلوك الانساني الهادف للمعرفة واليقين والبحث والتنقيب نجد أنه في محاولات مستمرة أما من أجل المحافظة على هذا الوجود ، وأما من أجل تطويره والارتقاء بآكائياته لكي يوفر له حياة متكاملة مستقرة تكفلها السعادة والرفاهية .

وما أن كوّن الانسان تلك القيم والمفاهيم المعبرة عن السعادة والكمال التي تصبوا اليها نفسه حتى ابتدأت مراحل صراعه وشقائه ، تارة صراعه مع نفسه وغرائزه وتارة صراعه مع أخيه وكلها فترات عصبية مرت بها الانسانية وعاشت

في ألامها وأحزانها حتى جذبت إليها عقول الفلاسفة والمفكرين في محاولات كثيرة من أجل القضاء على هذا الصراع وإيجاد التلاقى بين الفئات البشرية بتباين غرائزها وميولها ومن أجل الحفاظ على هذا الوجود الانساني في حالة من الاستقرار والهدوء والحب .

وإن كان هذا الفكر ابتداء في محاولات هي أقرب من الخيال لا تخرج عن حدود العقل المفكر ، وتعدت حواجزه وخرجت في صورة دعوة وتمجيد لتلك الحياة ، فقد كانت هناك محاولات أخرى تعدت الوجود الخيالي إلى أبعاد مادية فيها من القصور من حيث التنفيذ مما جعل دعوتها تتشتت مع مر السنين إلا أن كلا من الدعوتين الخيالية والمادية كان لهما عظيم الأثر من حيث الارتقاء بالفكر والسلوك الانساني بصفة عامة وخلق استعداد لتقبل الأفكار الأكثر استجابة مع النفس البشرية وعواطفها ومتطلباتها .

وعلى صفحات هذا الكتاب سنحاول بشيء من الإيجاز أن نبسط تلك الظواهر التي تعبر عن مراحل هذا الصراع ثم ننتهي ببحثنا بالتعرض للاشتراكية العربية باعتبارها منهجا يستهدف الانسان ويمجد وجوده ويحترم غرائزه ويوفق بين سلوكه ويقوده إلى حياة كريمة

ونسأل الله التوفيق . ، ، ،

م . أول بحري
محرم محمود الحسيني

مظاهر الوجود الانساني

ظل الانسان يكافح ويسعى جاهدا في محاولات مستمرة نحو اخضاع قوى الطبيعة وتسخيرها من أجل استكمال مظاهر وجوده وتحقيق سعادته وكماله لكي يضمن على حياته مستلزمات القوة والنظام والاستقرار .

وهذا الطموح إلى اجتياز حدود الامكان ، وهذا النزوع إلى استكشاف وتسخير ما وراء الواقع الملموس يعود على الانسان بالمتاعب والصعاب ، ويعرضه لألوان متباينة للصراع تارة مع الطبيعة وأخرى مع نفسه وهو بينها حائر يتخبط ويصطدم بالواقع الأليم .

وأى معنى للحياة لا يرفرف في سمائها مثل عليا وقيم سامية اخلاقية يهتدى بها الانسان في واقعه المضطرب وينظم سلوكه وتضيق له جوانب طريقه المظلم وتصبح له نبراسا يهديه إلى ما يحقق وجوده من خلال السلوك الانساني عامة .

ومما لا شك فيه أن مظاهر الوجود الانساني ماهى الا تلك الدلائل التي تشير إلى أسلوب الفئات البشرية في الحياة والمناهج التي تسير على منوالها من أجل تمكين الانسان من تحديد مكانه في هذا الوجود وموقفه ازاء أوضاع الحياة المتباينة بصورها وأفكارها ومذاهبها وذلك من حيث ايجابية سلوكه أو سلبية .

ومنذ الخليقة الأولى والانسان في صراع دائم وتفكير عميق ومحاولات مستمرة من أجل استنباط نتائج معينة واستدلالات خاصة لتطورات متباينة

المجالات والصور .

فالوجود الانساني من حيث المظاهر التي تشكله وتعطيه الصورة المادية والروحية تتجه بصفة مستمرة نحو التطور الجزئي والكلّي، والتاريخ البشري مملوء بظواهر متعددة وآثار بالغة تشير بمضمونها إلى هذا التطور وتؤكد حقيقة واضحة من حيث انقراض كثير من الماديات والمخلوقات التي صاحبت هذا الوجود لعدم تمكنها من مسايرة هذا التطور والتوافق مع مستلزماته والخضوع لقوانينه الحتمية من حيث التطور والارتقاء .

والسجل التاريخي للبشرية على مر السنين والقرون يحتوي على استدلالات للرقى البشري والتطور الطبيعي ، فالإنسان عبر تلك السنين والمراحل يسخر عقله واحساساته من أجل تحقيق ذاته وإثبات وجوده وقدرته على مسايرة هذا التطور الحتمي الطبيعي ويمر خلال تجارب متعددة لأشياء إلا لتعليل ظواهره والمضمون الحقيقي لذاته البشرية .

وبالاسترسال في بحث هذا التطور وبالتمعن في مكنونه نجد أنه يستند على أسس طبيعية ومستلزمات ضرورية ، بل أكثر من هذا يكون التطور هو أمر حتمي ومفروض علينا ومن يقف أمامه ويتعرض له أما أن يلحق به الجلود والسلبية وأما أن ينتهي إلى ما انتهت إليه تلك المراحل الأولى التي آلت إلى الانقراض والفناء على أثر اخفاقها في متابعة سنة هذا التطور وتكييف وجودها لتلائم تلك الحياة المتجددة والمتطورة بصفة دائمة .

وبالتمعن في الوجود الانساني وتعليل ظواهره المتعددة بمنطق فلسفي نجد أن هذا قد يؤدي بنا إلى التطلع والسعي وراء المعرفة الحقة وكشف كل ما هو غامض مستمر المحاولة لربط ما بين ظواهره المختلفة حتى تتحقق لنا صورة متكاملة شفافّة واضحة وتنبؤ معالمها لتسهل على العقول تداركها ويتسنى للإنسان الاستجابة لقوانينها والتفاعل معها بصورة ايجابية .

فالإنسان في صراع ونضال مستمر يسعى جاهدا لا يجتاز طريق شائكة وعرة تحفها المتاعب وتحيط بها الصعاب وتعترضها العقبات، وغاية تلك الجهود وهذا العناء هي اصراره للمحافظة على وجوده وانفسه واستمراره بالصورة التي تتلاءم واستعداداته وميوله وقطابه .

ثم ماذا حدث عقت ذلك ؟ ما لبثت تلك المعالم الوجود الانساني أن وضحت وتكشفت له وأطمأن إلى ثبات حقه في الحياة حتى أخذت تجول في أعماقه تساءلات فيحرف به عن طريق الاستقرار والهدوء والقبوع إلى طريق الألم والصراع النفسي والاضطراب الوجداني أخذ يتساءل ويبحث عن وجوده الذاتي ، والوسائل التي من شأنها التمسك بمظاهر وجوده . . ثم ما لبثت تساءلات أخرى تضطرب في أعماقه بالتالي ، ماذا يعني وجوده وما هو السر من ورائه . . . ماهي المصادر التي تنشق على أثرها ما يولد في نفسه الحزن والشقاء والألم — ماهو مضمون الخير والشر ماهي الوسائل التي تحرره من تلك الآلام وتقوده إلى آفاق نقاء النفس وشفاء الجسد . وأخيراً ماهي المعايير التي يستند إليها في معايرة سعادته ويجعلها غاية يسعى إليها وينشدها من خلال وجوده .

تلك الأسئلة طالما رددتها الانسانية حتى تخصص لها الفلاسفة والمفكرون على مر السنين والأجيال لكي يتمكنوا من الوصول إلى مكنونها وعلاقتها وأن يهتدوا إلى السبل التي تقودهم إلى خلق تلك المفاهيم وإيجاد الحلول التي تشفي النفوس أمام تلك التساءلات وتمكن الانسانية عامة من أن تحقق وجودها الخالد وتبعث الأطمئنان والاستقرار في النفوس المضطربة .

وتعددت تبعاً لذلك مناهج التفكير للوصول إلى معرفة الحقيقة ، خاصتها البشرية في محاولات للتقرب من متطلباتها واحتياجاتها المادية والروحية ولكي تعبر من خلالها عن حقيقة حاجاتها والعوامل التي تؤثر في وجودها العامة

والخاصة ، فتارة تسمو إلى أبعاد المثالية والخيالية ثم تصدم بحقائق لا تفسر لها
فتحاول أن تتسلل نحوها مرة أخرى بأساليب هي أقرب للواقع من الخيال . .
منهج يعتمد على الحقائق في هيكل فروض عقلية ونظرية نابعة من وراء العقل
ثم يهتدى إلى المنهج العلمي النابع من وراء التجربة والحوادث المتعاقبة التي تقوده
إلى حقيقة الوجود الانساني .

وقد أخذ الإنسان بعد ذلك يبحث من وراء مناهج التفكير التي هي في حد
ذاتها عبارة عن محاولات تنتهج من أجل ازالة الغموض الذي يلبس مفهوم
الظواهر والآراء المتنوعة والمبادئ والنظم والأهداف المتباينة في أذهان الفئات
البشرية ، كما وانها تلتقي الضوء الذي ينير الطريق إلى المعرفة بمجالاتها المختلفة التي
تتصل بحياة الانسان في كل مكان وزمان .

ومن ثم فنماهج التفكير في مضمونها عن تلك النزعة الانسانية من حيث
تطامعها نحو الكشف عن الحقائق بصرف النظر عما يحتمل من آثار تترتب على
كشفها سواء من حيث تحقيق مطالب الحياة العملية أو مجرد اشباع لمقتضيات
الحياة الروحية ، أي أنها التماس للمعرفة غايتها الكشف عن الاستدلالات التي
تفسرها وتؤكد وجودها .

ومنهجها يتدرج إلى ثلاثة اركان :

أ - مناهج مثالية

ب - مناهج نظرية

ج - مناهج علمية (تحليلية)

وكما في حد ذاتها عبارة عن مسميات اصطلاحية الغاية منها الاستدلال
على كل منهج بمدلوله ومدى ارتباطه بالواقع الانساني ومطلباته الأساسية .

أ - المنهج المثالي :

وهو الذي اصطلح على تغمينه كافة الأفكار أو الأعمال أو العمليات التي

يستهدف صاحبها تقديم حل أو تصوير لقضية من قضايا المجتمعات .

وينبثق هذا التفكير اثر احاطة الفكر بظروف معينة يتأثر بها وتتلاعب بعواطفه وتحرك مشاعره فيحاول أن يتصور حلولاً متعددة تبدأ بأن يضع لها هيكلًا في مفهومه الذاتي النابع من عقيدته الذاتية ووفقاً لوجهة نظره من حيث الأبعاد والمدى الذي يجب أن تكون عليه تلك الأوضاع والظروف .

وعليه فلا يبدأ الفيلسوف من واقع التجربة وإنما بمدى تأثره العاطفي بالبحث الذي يولد في نفسه إحساساً بأن هذا المنهج هو الحل المثالي الذي يجب أن تنتهجه تلك الجموع وبالتالي نستدل على أنه ليس هناك أي نظام مثالي أو منهج للتفكير يعد متكاملًا لأنه ينبع من داخل الذات الفردية ويتخذ وضعه المثالي من وجهة نظر الفكر فحسب وبناء على مدى تأثر عواطفه ومدى ارتباطه وجدانياً بالبيئة الحاوية له .

ومن ثم فلا يخفى أن هذا النمط من التفكير لا يهتم بالمدى الذي يستجيب به للفرائض الانسانية المتباينة ومتطلباتها المتضاربة وبالتالي على مدى قدرته بخلاق التفاعل والاستقرار بين الفئات البشرية فكل هذه المسائل لا يضعها الفكر في اعتباره وإنما يقدم تلك الحلول التي تأتي على هذا النمط ، خيالية بحتة غير قادرة على الصمود أمام الصراع الإنساني بكونها بمنأى عن الواقع .

ب - المنهج النظري :

وهو المنهج المعبر عن التفكير بالعمليات العقلية التي يقصد بها الكشف عن ظاهرة معينة ، وتبدأ من فرض عقلي بحت ، يقتنع بصحته باعتباره يمثل الحقيقة وعن طريق الانتقال من فرض إلى فرض يمكنه البرهنة بصحة هذا المنطوق .

وعليه فهذا المنهج لم يبدأ من الواقع وإنما يبدأ بمنطوق لنظرية معينة في مجال الحقيقة وبفكرة من المجال المحسوس ويستتبع ذلك فروض تعقبها أخرى تعتمد على الطريقة النظرية والرسومات حتى تنتهي إلى صياغة برهان ثابت لها ،

وتكون مدى صحة هذا الفرص ومدى تمثيله عن طريق مجموعة من الفروض العقلية البحتة ثم الانتقال من فرض عقلي لآخر إلى أن يصل إلى الاستدلالات بصحة البرهان ويجعل منه منطوقا للنظرية .

ج - المنهج العلمي :

وفيه يرتكز المفكر لاستخلاص نظرياته وأفكاره من خلال احتكاكه بواقع التجربة واستنتاجاته من خلال المشاهدات والحوادث .

وهذا المنهج في التفكير هو في الغالب ما يجد استجابة من قبل الفئات البشرية حيث أنها بصفة لاشعورية تنجذب نحو ما يشير في نفوسها من غرائز وميول متطلعة ومعرفة بمكنون الأمور وكشف كل ما هو غامض منها والوقوف على حقائق الموجودات والظواهر المعقدة وذلك عن طريق تتبع ظواهرها المتغيرة .



وهكذا بعد أن استدلنا على مناهج التفكير السابقة الذكر نجد أننا في الواقع أمام ثلاثة مناهج لا يمكن أن نجد بينها ثغرات أو حدود ، وإنما كلاهما يرتبط بالآخر بعلاقة أو أكثر .

ولو تتبعنا المنهج المثالي من حيث كونه يعبر عن أعلا مراتب التفكير وأكثرها كمالا وتنسيقا لوجدنا استجابة له وتفاعلا معه حتى ولو بصورة نظرية بعيدة عن الواقع إلا أنها ستترك بعض الآثار من حيث تنمية احساسات الانسان والارتقاء بمشاعره ووجدانه والوصول بها إلى آفاق تمكنه من تقييم كل ما هو كامل متناسق .

وإذا ما انتقلنا إلى المنهج النظري نجد أنه يقود العقل الإنساني ويهديه إلى أسس المعرفة الصحيحة المتقدمة حتى وإن سلك المنهج العملي واستند على

التجارب والمشاهدات بخثا وراء هذا المنطوق وأثبتت صحته فقد يصل إلى أسنى الغايات وأنبلها .

وهكذا فإذا ما جمعت الإنسانية مراحل السكال غاية تصبو إليها النفوس وتوجه نحوها الطاقات والقدرات فإن اخفقت الإنسانية في الوصول إليها فإنها ولا شك ستقودها إلى درجات قريبة منها .

وهذا السلوك الفكرى التجريبي لا يكون بالطبع قاصرا على ظاهرة معينة من ظواهر الوجود البشرى وإنما يمكن اتباعه عند تقييم كافة مظاهر الوجود الانسانى .

فالإنسان موجود وهذه الحقيقة لا يستطيع العقل البشرى أن يتنكر لها أو يقلل منها وهذا الوجود من خلال اطار الفكر البشرى يتمثل فى صورتين احدهما لها الواقع المادى المحسوس والاخرى لها واقع روحى والذي يمكن أن يتوصل له الانسان عن طريق استنباطات معينة من خلال وجوده وكيانه وذاته .

ومن حيث الجانب المادى فهناك عدة حواس تربط ما بين الوجود وانعكاس الظواهر الطبيعية والمادية المحيطة به - فاذا ما كان هناك أى احتكاك بينهما تولدت عدة انفعالات متباينة محسوسة تنتقل جميعها وبالتالي إلى مركز العقل والإدراك والتفهم فى الجسم ، ليعيد صياغتها وتصويرها إلى مظاهر مادية بيولوجية يمكن أن ينفعل بها هذا الكائن المادى وتنعكس آثارها بالتالى أيضا بسلوك خاص له مميزاته ومعالمه بحيث يصبح لكل تأثير مادى سلوك معين يعبر عنه بشكل ما .

فالإنسان من حيث وجوده الذاتى يعيش فى كون غريب لانهاى إذا ما توصل لأبعاد حقيقته المعينة اتضح له أبعاد أخرى مترامية لحقائق يعجز عن الوصول إلى مكنونها بسهولة فاما ان يأخذها على هلتها وإما أن يقف على تفسير

جزئى لها لا يشفى محتواه كل انفعالاته وتساءلاته التى تضطرب فى أعماقه - واما ان يكتفى ويستسلم للانعكاسات المختلفة التى يتأثر بها تلقائيا عند احتكاكه بظاهرة من ظواهرها المادية .

اما الجانب الروحى فى الانسان فله طبيعته الخاصة حيث انه يستند على استعدادات فطرية ومكونات عضوية وقد تكون استجابته شعورية ولا شعورية من حيث مدى تأثره بتلك الظواهر التى تحيط به ، وكذلك على مدى تأثره بحاسة الإدراك العقلى والأبعاد التى يتوصل بها إلى استنباط تعليقات مباشرة لها .

ومن هنا يتضح لنا ظاهرة من حيث كون العقل هو المحرك الأول الذى يشير كلا من الجانبين المادى والروحى وكسبيل للمعرفة ووسيلة يعبر بها الانسان عن قلقه الدائم من حيث تلك التساءلات والانفعالات التى تجول فى أعماقه منذ الخليقة حتى يومنا هذا .

وبالتحقق فى تلك الظاهرة نجد أنها قد توحى لنا بمعان كثيرة وذلك انه كلما أرتقى العقل البشرى وتفتحت آفاقه وازدادت معارفه كلما تباعدت حدود المعرفة وازدادت تطالعات ومجالات بحوثه ، وهذا ما يؤدى إلى ازدياد شعور الإنسان بالقصور والألم وازدياد اضطراباته وانفعالاته النفسية حتى يغدو انسانا تائها لا يجد لأفكاره مستقرا ولا لزعاته هاديا أو منتهى .

ومن هنا ابتدأ الإنسان فى وضع مفاهيم وغايات يسلك نحوها باحساساته ويوجه سلوكه نحوها لعمله يمتدى للوصول اليها والأحاساس بها ! وهكذا أخذت البشرية فى اثبات وجودها عن طريق بعض القيم والمفاهيم والمعايير التى تعبر فى مضمونها عن ذاتها وتنشق عن الكيان الإنسانى ، وقد تتفاوت تلك القيم فيما بينها تبعاً لمدى ارتباطها بحياته ووجوده الإنسانى ومصالحه العامة والخاصة .

ومما لا شك فيه أن المجتمعات الإنسانية قد تتفاوت فيما بينها تبعاً لما تعلو فى

سمائها من قيم ومفاهيم وتبعاً لمدى تفسيرها لها ومدى التفاعل معها والاستجابة لبنودها وحقائقها وكذلك عما إذا كانت تلك القيم والمفاهيم تتعلق بالجانب الروحي أو المادى للانسانية عامة .

ومن خلال تلك الأحاسيس التى صارت تجول فى أعماق البشرية وتشيع فى حياتها نوعاً من القلق سواء كان فى نطاق الوجود أو نحو ابعاد المستقبل فصار يتساءل عن غاية هذا الوجود وعن الآفاق التى يمكن ان يتوصل اليها، يؤثر فيها ويتأثر بمظاهرها فأخذ بالتالى يستدل على تلك المظاهر من خلال عمله وحر كته وتفكيره وفقاً لاستعداداته الفطرية من حيث ميوله التلقائية لتفهم الأمور التى هى أقرب لمتناوله ويسهل الشعور بها عن طريق الحواس المختلفة الموجودة فى الذات الانسانية . . .

وإذا ما انطلق الانسان لوضع معالم ثابتة لغاية وجوده فعليه أن يعمد للفحص والتحجيز والبحث والاستقراء إلى أن يدرك ظواهر معيشتة القائمة .

وهذا بالتالى يرتكز على مدى مقدرة التفهم والتبصر والأحاساس من خلال واقعه المادى وبما يحيط به وبسيطرة عقله على دوافع الحس وتزواته .

والانسان منذ وجوده يسعى لتفهم الجانب الروحي والجانب المادى فى حياته وكلاهما يسيران جنباً إلى جنب لا ينفصلان ويكونان معاً كلا متكاملين يعبر عن حقيقة وجوده فإذا ما اتجه التفكير لوضع مفاهيم وقيم معينة فيجب أن تكون فى مضمونها نافذة إلى داخل النفس البشرية وتشبع كلا من الجانبين وتحقق مطالبهما ، بحيث إذا ما كان هناك تناقض فى الفكر وانبثقت تلك المفاهيم تبحت وراء واقع منها دون الآخر فلاشك انه سيكون لتلك القيم والمفاهيم والغايات من القصور ما يؤدى بالتالى إلى اشباع جانب دون الآخر مما يترتب عليه اضطراب فى الغايات والسلوك فى نطاق الحياة الانسانية .

وعليه فإذا ما اتجهت البشرية نحو وضع قيم ومعايير لها تستهدفها فى حياتها

فيجب أن يكون هناك تقدير لكل من الجانبين الروحي والمادى حتى يكون هناك التلازم الفعال بين الفكر والروح والسلوك والواقع.

وبالاسترسال في بحث ظاهرة الوجود الأنسانى وغايته فلا مفر من الاصطدام بعدة تساؤلات عما إذا كان الإنسان قد وجد في تلك الحياة ليتعذب ويشقى أم أنه قد وجد ليعيش حياة فاضلة وسعيدة متكاملة — فتلك الظاهرة قد جذبت إليها عقول الفلاسفة ووجهت نحوها أفكارهم ووجداناتهم يبحثون وراء تفسيرها ووضع معايير لها وفلسفة ثابتة تقترن بها ، تريد النفوس أن تهتدى إلى معالم الوجود من خلال السعادة والألم وتحدد أبعاد وجودها لتحقيق الاستقرار الروحي والمادى .

فالألم كظاهرة من الظواهر الانسانية تعتبر في نظر الفلاسفة ذات وجهين الجانب الأول هو تحليل تلك الظاهرة وإدراك حقيقتها ومسبباتها ، والوجه الثانى هو كيفية الاهتداء إلى طريقة التحرر والتغلب عليها والتخلص من آثارها ومسبباتها .

ومما لا شك فيه أنه ليس هناك مجال لأنكار الآثار اللاحقة للتطور والتقدم العلمى وازدهار تطبيقاته واشعاع تأثيره المحسوس فى نطاق البيئات الاجتماعية من حيث النمو بالحياة الانسانية والعمل على توفير كافة متطلباتها ومستلزمات الحياة المتكاملة المتقدمة ولكن هناك جانب لا يمكن أن نتغاضى عنه أيضا ألا وهو ذلك الجانب النفسى من الإنسان وتلك النزعات التى قد تسبب له بعض الآلام والاضطرابات المتباينة .

فإذا ما فرض أن التطور أخذ يسير فى مجراه اللانهاى وأنه يسير قدما للأمام بخطوات متسعة نحو الازدهار والكمال حتى يكاد أن يصل إلى سدة المنتهى ، ونتمصور كذلك أن الانسانية قد تمكنت من تحقيق الرفاهية والكمال من حيث مظاهر الاستمتاع بلذات الحياة بتباين فروعها ومستوياتها — فنقف هنا

لنتساءل هل ستكتفى البشرية على هذا النحو وتستقر نفوسها وعواطفها وتمهداً
أنفعالاتها الروحية والمادية وهل سينتهى طموحها وتكتفى بما وصلت اليه من
اسباب اللذة والكمال حتى تتمكن من القضاء على مظاهر الألم والاضطراب ؟

لا ريب أن ذلك يدعو إلى التشكك وعدم الاقتناع والاستسلام ، فالإنسان
في طموح دائم مستمر ويمتد أبعاد آفاقه إلى ما لانهاية — فكلما يصل إلى
مستوى معين تطلع إلى مستويات أخرى تعلوها وأكثر تعقيدا منها تحتاج إلى
طاقات أكثر ومجهودات أشق من أجل الوصول إلى تحقيقها . كما وأنه كلما بلغ
الإنسان إلى درجة من درجات التقدم والرقى تطلع إلى حياة أرقى وأسمى من
واقعة المادى الحالى . . .

وهكذا لا يقف الإنسان عند حد حتى ولو أعطاه الخالق كل ما يتمنى
ويتطلع إليه ويرجوه في حياته ، وإن يكتفى حتى ولو أعطاه الله من الصحة
والجمال والقوة والخير ووسائل الرفاهية فإنه سينقاد لصوت ينبعث من أعماقه
ويلح عليه بالمزيد ويطلب الأكثر ويتطلع إلى مستويات ومطالب أخرى . . .
وهكذا فالإنسان يتباين مستوياته وامكانياته في صراع دائم قارة مع الحرمان
والشقاء وتارة مع قلق نفسه الطامعة المضطربة .

ولو تتبعنا تلك الظاهرة لوقفنا على حقيقة بواعثها ومسبباتها وعلاقتها
الأساسية وذلك من حيث عدم وجود معايير ثابتة ومقاييس يمكن أن تقاس
بها درجات الكمال ومعانى السعادة ومظاهر الحياة الإنسانية ، كما وأنه ليس
هناك مثل عليا متكاملة إذا ما وصل إليها الإنسان قنع بها واستقرت أعماقه
وهدأت شهواته وانتهت عندها آفاق آماله وتطلعاته .

فالإنسان في فراغ دائم، وهذا الفراغ الذى يتسع من وراء تلك التطلعات
اللامحدودة كثيرا ما يؤدي إلى ما يسمى شقاء وآلام الفراغ، وذلك لأنه ليس هناك
معنى للحياة دون أن تتوفر لها المثل العليا الثابتة المتكاملة نسبيا ، والقيم التى تحدد

من تطلعات الإنسان الانبائية وتنظم سلوكه البشرى المضطرب في نطاق المجتمع الواحد .

ومن ثم فتحرر الانسان من هذا الفراغ وتقربه إلى المثل العليا المتكاملة جعله يقترن إقترانا وثيقا بالمعرفة التي هي السبيل الوحيد القادر على هداية النفس واطمئنان جوانب طريق الانسان الذي احاله الفراغ إلى درب طويل مظلم كثير العثرات والفجوات يقود عابره نحو العدم والانهيار والمناهة . . .

والمعرفة في حد ذاتها هي أكبر معين للانسانية عامة لما لها من آثار بالغة خالدة . . . فتكشف عن أعماق النفس وتفضح خباياها وتبليغ ما يمكن بها من مثل عليا واستعدادات سامية للانطلاق نحو غايات كريمة ، وعن طريق المعرفة تترفع قيمة النفس البشرية وتجعلها تسمو على آفاق السلوك الانساني بغاياته الزائلة . . . وهكذا فالمعرفة لديها من القدرات والإمكانات ما تمكن الانسان من التوفيق بين الادراك العقلي والاحساسات والشعور العاطفي الاخلاقي وتجعل هناك التماسا وتآلفا ما بين المعرفة والحكمة وبين الادراك وحاسة الجمال والسلوك الذي هو مجرد انعكاس لتلك التأثيرات وتلك الاحاسيس والتذوق والتقدير .

السلوك الانساني

بمتابعة مظاهر السلوك الانساني خلال البيئات الاجتماعية فاننا قد نقف أمام عدة مظاهر ومؤثرات وقفة حائرة من حيث السلوك الذي خضع له وامل الفطرية التي تدفع الانسان لكي يسلك سلوكا غريزيا وهذا السلوك هو مجرد انعكاس لمؤثرات نابعة من البيئة المحيطة به بحيث تشكل له الحدود والابعاد وكذلك الوسيلة التي ينتهجها الفرد نحو قضاء حاجته - وربما كان هناك تأثير مزدوج ما بين الدوافع الغريزية والمؤثرات المحيطة بحيث تعطى تميزا خاصا للسلوك الفردي خلال المجتمع الحاوي له .

والانسان منذ أول وجوده يتأثر بما حوله ويتكيف لمعاملة من يجاوره وقد اتجه بعض علماء النفس إلى الاجماع على أن الغايات الحيوية عند الانسان هي ثلاث :

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

١ — المحافظة على الفرد

٢ — المحافظة على النوع

٣ — المحافظة على الجماعة

وبملاحظة السلوك الانساني خلال البيئة الاجتماعية الحاوية له نجد أن هذا السلوك القطري قد يكون معبراً في مضمونه عن دوافع داخلية ومؤثرات ثابتة في النفس البشرية .

والكى نقف على حقيقة هذا السلوك الذى ينتهجه الفرد بحسب أن تقف على حقيقة الدوافع والبواعث التى تحرك الانسان تجاه سلوك معين :

فالبواعث : هي دوافع خارجية

والدوافع : هي الشعور أو الاحساس الداخلى الذى يهيم الفرد لسلوك معين أو للوصول إلى أهداف معينة . فهى اما أن تكون :

أ — دوافع أو حاجات عضوية وهى فطرية

ب — دوافع اجتماعية نفسية

ج — ميول واتجاهات

والإنسان يعمل جاهدا ليس من أجل تحقيق أو اشباع رغبة واحدة وإنما نحو اشباع عدة دوافع ورغبات تسيطر عليه وتدفعه لانتهاج سلوك معين .

* * *

الضوابط الحاكمة للسلوك الغريزى :

الانسان من حيث أنه موجود فله الحق فى الحركة والتخاطب والتعامل

والعمل والسعى من وراء توافر سبل معيشتهم لتكوين حياة متكاملة وكذلك نحو إقامة علاقات عامة تساهم في تكامل مظاهر حياته ووجوده — كذلك له الحرية في انتهاج السلوك الذى يحقق له الاستمرار وأمتلاك موارده وامكانياته التى يدير بها شئون حياته وينظمها — كذلك له الحق فى ان يعتنق العقيدة التى يشعر فى اعتناقها بالاستقرار والصفاء الروحى — كذلك له الحق فى الانتقال سعيًا وراء الموارد اللازمة له .

وبحثنا هذا ليس وراء الاستقصاء من الحقوق الطبيعية للانسان وإنما وراء ذلك السلوك الذى ينهجه لقضاء حاجته ، فيجب أن يكون هذا السلوك قائما على ادراك واسع للحقائق العلمية التى تدنوبه نحو الكيان الانسانى وتناهى به عن السلوك الحيوانى القاصر على الانتقال بالواقع المادى دون التفهم والتعقل فى الموجودات ثم التسامى والفكر والغرائز نحو ايجاد عالمها . فيجب على الانسان ألا يتقيد ويعتمد على مجرد الاحساسات فى استخلاص جواهر الموجودات لأنها قد تكون خاطئة وفاسدة . ومن هنا نتج أن يكون هناك التهام ما بين الحواس والفكر لى يتمكن من استنباط آراء صحيحة واستنتاجات موفقة صالحة ترتبط بالواقع المادى وفى نفس الوقت تقترب من الفضائل والقيم الأخلاقية السامية وعندما تكون للتجربة هى مصدر لاستنباط الفكر فيجب أن يكون هناك توفيق ما بين الواقع المادى والمثالية الجوهرية والمعايير المتفق عليها والتى تكون قائمة على أركان وأسس قدسية تنعكس اشعاعاتها على السلوك الانسانى وتباركه خلال البيئة الاجتماعية الحاوية له .

ومما لا شك فيه أن السلوك الاخلاقى الهادف إلى تنظيم الحياة الانسانية والتوفيق بين العلاقات المتداولة لتنظيم منهج الحياة الاجتماعية يجب أن يستهدف جواهر سامية لوجودها المادى من حيث السمو بالغرائز الانسانية وتنقية النفوس البشرية من أدران الرزائل والشرور والأنانية .

ولارىب أن لم تكن الفضيلة والقيم الاخلاقية والمثل الانسانية ذات وجود مادى وتتغلغل جذورها فى أعماق النفوس البشرية فأنها ستصبح ولاشك مجرد

نظريات هشة وأقوال طابرة لا تستحق الالتفات إليها أو الاهتمام بضمائمها
المشرق أو الاصغاء إلى مضمونها وغايتها النبيلة التي هي الأساس لقيام المجتمعات
الفاضلة

وعليه فيجب أن يكون هناك كيان ثابت راسخ الجذور للخير والصالح
العام بحيث يكون في صورة شفافة واضحة تسهل على العقول تداركها والتفاعل
معه حتى يتيسر إيجاد خلق الحلول المتباينة الموفقة لكثير من المشاكل الاجتماعية
المعقدة ونتمكن من إيجاد الضوابط الحاكمة لسلوكها الاجتماعي الذي يقترب بنا
بقدر الإمكان من جوهر الفضيلة السامية .

الغرائز الانسانية العامة :

فاذا ما تأملنا مجموعة الغرائز التي تتحكم في السلوك الانساني بصفة عامة نجد
أنها لا تخرج عن ثلاث مجموعات كبرى أو غرائز عامة من حيث :

أ — غريزة الذات

ب — غريزة الاجتماع

ج — غريزة الجنسية

وعند دراسة السلوك الانساني بصفة عامة نجد أنه لا يخرج عن نطاق تلك
الغرائز الأساسية الفطرية التي صاحبت الوجود الانساني منذ القدم .

وقد عرف « مكندوجل » الغريزة بأنها استعداد عصبي نفسي يجعل
صاحبه يذنبه إلى مؤثرات من نوع خاص، ويدركها ادراكا حسيا ويشعر بانفعال
من نوع خاص عند ادراجها ويسلك نحوها مسلكا خاصا أو على الأقل يشعر
بنزعة لأن يسلك نحوها هذا السلوك (١)

(١) علم النفس «الدكتور عبد العزيز القوصي»

وقد تعرض «مكدوجل» في مؤلفه «مقدمة علم النفس الاجتماعي» لأهم الغرائز البشرية المعروفة ومجموعها اثنا عشرة غريزة عرفها جميعا في النهاية بغريزة الحياة أو غريزة حب البقاء وهي :

- | | |
|-----------------------------|-----------------------|
| ١ — غريزة الهروب | ٧ — غريزة الطعام |
| ٢ — غريزة الهجوم | ٨ — غريزة الاقتناء |
| ٣ — غريزة النفور | ٩ — غريزة الانشاء |
| ٤ — غريزة حب الاستطلاع | ١٠ — غريزة التماسل |
| ٥ — غريزة الاعتداد بالذات | ١١ — الغريزة الوالدية |
| ٦ — غريزة الخضوع أو التسليم | ١٢ — غريزة الاجتماع |

وتلك الغرائز البشرية لها من المميزات والصفات الثابتة التي نقترب بالوجود الانساني اينما كان ذلك من حيث :

أولا : الفطرية : أي انها غير مكتسبة ولو أنها قابلة للتعديل

ثانيا : العموم في النوعية وذلك من حيث وجودها في جميع أفراد النوع الواحد بدون استثناء أو تمييز الأنواع عن بعضها .

ثالثا : الثبات أي أنها ثابتة لا يمكن استئصالها بعكس الاستعدادات المكتسبة التي يمكن زوالها بزوال المؤثر المسبب لها أو الأمكان بتبديلها بغيرها ولو أنها تختلف في الدرجات احتلافا متباينا .

رابعا : الظهور على مراحل تكاد تكون ثابتة.

خامسا : وجود مظاهر الشعور الثلاثة واضحة في كل منها في حالة قيام الكائن الحي بسلوكه الغريزي .

سادسا : تميز كل غريزة بانفعال خاص ومهابب لها

سابعاً : القيمة الحيوية وذلك لما يترتب عنها من وظائف حيوية بالنسبة للكائن الحي أثر النشاط الغريزي .

ومن هنا فعند دراسة الطبيعة البشرية يستلزم علينا أن نتبع أثر تلك الغرائز في تحديد أبعاد السلوك الانساني من حيث كونه انعكاساً لحياته النفسية وتعبيراً عما يدور في أعماقه من احساسات وخواطر . وطالما أن السلوك هو انعكاس مباشر للغرائز والدوافع والآثار الوجدانية النابعة من صميم النفس البشرية فبحثنا هذا يتطلب وثقة سريعة لتمييز السلوك الانساني من حيث كونه :

أولاً : سلوكاً فطرياً (غريزياً - طبيعياً)

ثانياً : سلوكاً مكتسباً

أولاً : السلوك الفطري :

ولاشك أنه قد يفيدنا بحثنا هذا نحو فهم طبيعة السلوك الانساني أن ندرك ما إذا كان الانسان يسلك سلوكاً نتيجة انطباعة بمؤثرات البيئة المحيطة به أم نتيجة عوامل فطرية كامنة في داخله أم لامتزاجهما معاً .

هذا ولا يخفى أن ما يفرق الانسان والحيوان أن الأول ينقاد وراء تفكيره وارادته وعقله بحيث يتحكما في سلوكه ، والسلوك الفطري عند الانسان إما أن يكون سلوكاً يعبر عن أفعال منعكسة أو رد فعل لمؤثرات خارجية تنتهي بزوال المؤثر الخارجي وتسمى بالافعال المنعكسة والتي تتم دون أن يكون هناك أثر للانفعال .

أما الفعل الغريزي فيصاحبه الشعور بمظاهره الثلاثة من حيث الإدراك وفيه الوجدان أو الانفعال وفيه النزوع أو الرغبة أو الاندفاع .

وعليه فالفعل الغريزي يكون مقترناً بالمعرفة أو الإدراك والغالب أن تكون الفطرة مجرد استعداد يشترك فيه الافراد حيث تدفعهم للقيام بسلوك معين إذا

ما توفرت شروط يرتبط بعضها بالموقف والبعض الآخر بالكائن نفسه وهكذا نستدل على أن السلوك القطري الغريزي قد يكون سلوكا مباشرا تلقائيا واما أن يكون سلوكا غريزيا معدلا تتحكم فيه الناحية الادراكية في النفس البشرية.

وعلى أثر اندماج الانسان في البيئة الحاوية له يتضح أثر تلك البيئة من حيث تقوية ذلك الاستعداد أو اضعافه وكما وأنها تسمح له بالظهور في الحدود والأبعاد التي تضعها له ، وأصبحت لدى البعض ميول وعواطف مكتسبة تدور حول محاور أساسية في التكوين الاجتماعي من حيث الخير والحق والجمال .

وعليه يتضح ذلك الدور الذي يسلمه كل من العقل والبيئة في تشكيل الانسان وتطوير سلوكه وتعديله وتهذيبه .

وطالما أن الغاية الأساسية من حياة الانسان هي المحافظة على نوعه وضمان بقائه فقد تم تقسيم الغايات الحساسة للانسان الى ما يأتي :

١ - المحافظة على الفرد

٢ - المحافظة على النوع

٣ - المحافظة على الجماعة

والانسان هكذا في محاولات لا ثبات وجوده عن طريق انتهاجه لسلوك معين مقيّد بتلك الغرائز ونزعاته العامة التي تنمو في ظل وجوده خلال البيئة الحاوية له .

المؤثرات الخارجية على السلوك الانساني

(١) الانفعال :

ويتمثل في الحالات الوجدانية العنيفة التي تشمل النفس البشرية والجسم بالتغيير والاضطراب وتكوين احساسات خاصة تصدر من الجسم وتصحبها

عادة معالجة نزوعية .

والكى يحا.ث الانفعال ينبغى أن تتوفر له عدة شروط :

اولا : وجود الكائن الحي الذى لديه من الظروف الفطرية والمكتسبة ما يحدد مدى وطبيعة استجابته للمؤثر .

ثانيا : مؤثر خارجى أو باعث داخلى وهو الادراك

ثالثا : حدوث الاستجابة والانفعال لمواجهة الشعور الداخلى والتقيد الخارجى وناحية التغيير الفسيولوجى .

ومن هنا فالانفعالات تكون مرتبطة والاحساسات المختلفة كذلك تتوقف على الناحية الادراكية التى يمكن اعتبارها ركنا من أركان الناحية الانفعالية وقد تكون فى حد ذاتها تختص بالناحية التعبيرية ، وقد تكون الناحية التأثيرية فى الاولى تعتمد فى قياسها على التغييرات الفسيولوجية والثانية على مدى تأثير الشخص ذاته باؤثرات الخارجية .

الانفعال وأثره فى مظاهر الوجود

لا شك ان الدوافع لها عميق الأثر من حيث اعتبارها قوة دافعة للعمل البشرى من حيث مدى الارتكاز فى استثارة انفعالات الافراد وتحريك عواطفهم والتحكم فى غرائزهم من أجل اجتذابهم وتوجيههم نحو القيام بعمل معين .

وبالوقوف على العوامل التى تتمكن عن طريقها من اثاره العواطف والتحكم فيها والتى بالتالى يمكن عن طريق العواطف تنظيم الغرائز والحد من طغيانها على السلوك الانسانى والارتقاء بها الى آفاق بعيدة عن الانحراف قريبة من الكمال والمثالية .

وهكذا فمن طريق التحكم فى النزعات الغريزية للفتات البشرية ويانتهاج

الطرق والوسائل التي ترمي الى استثارة احساسات الفرد وتهييج مشاعره ودفعه الى تذوق الجمال والخير والحق فهذا ما ينقى احساساته ويرفع من ذوقه ويقربه من المناهج المتكاملة المتناسقة - هذا بدوره ما يؤدي الى جعل الانفعالات وسيلة لجعل النفس البشرية تنساق الى الاعمال المتكاملة الخالدة .

الاستهواء

وهي من النزعات ذات الصفة الفطرية او الصفة النابعة من وجود الانسان في نطاق بيئة اجتماعية . فالاستهواء يمكن اعتباره نزعة فطرية او استعداد غريزي في النفس البشرية عامة تهييء الفرد لتصديق آراء الغير والتفاعل معها إما بصورة عكسية اي من حيث مدى انتقال الأفكار من فرد الى آخر ومدى ميل الفرد الى تصديق تلك الآراء .

أنواع الاستهواء

لقد استقرت البحوث النفسية على تقسيم الاستهواء الى أنواع متعددة منها .
استهواء مباشر ناتج عن استهوائك لفكرة لا ترد في الاعتقاد بها واعتناقها
وهناك استهواء غير مباشر ناتج عن التأثير بمؤثرات خارجية عن ذاتك .

والاستهواء إما أن يكون

استهواء فردي يعود على المتأثر نفسه واما أن يكون استهواء جماعي أي يؤثر في عدة افراد مكونين لقاء اجتماعي ، وقد يكون هذا الاستهواء مجرد استهواء الكلام أي الايمان بفكرة والتعبير عنها دون أن يكون السلوك الشخصي المتأثر مطابقا لتعاليم هذا الرأي .

واما أن يكون استهواء سلوكي أي أن سلوك الفرد في تلك الحالة مجرد انعكاس مطابق لما آمن به من أفكار ومعتقدات ومؤثرات .

وقد يكون الاستهواء صفة ايجابية أياً لا يكون هناك تمارض مع انماق افكار جديدة واما أن يأخذ هذا الاستهواء صفة ضدية أو عكسية للأفكار والمؤثرات .

عوامل نجاحه وشروطه

والى يحدث الاستهواء يجب ان يكون هناك مؤثر ومتأثر تحت ظروف معينة . ولا شك أن التأثير من فرد لآخر يتحقق بسرعة وما عليه اذا ما كان كلا الفردين من جنس واحد ومعتنقين لهيدة واحدة أو حزبا واحدا فهذا مما لا شك يسهل عملية الاستهواء ويزيد من استجابتها المتبادلة .

كما أن هناك من العوامل ما يزيد من معدلات نجاحها وقوتها وهى :

- ١ — جمل السامع بالنسبة للمتكلم من حيث شخصيته أو مجال تخصصه .
- ٢ — اذا ما كان السامع فى حالة جسمانية ومعنوية تضعف قدرته على النقد والبحث وراء المسببات والبواعث والعوامل الأساسية التى تيسر عليه اعتناق الأفكار .
- ٣ — كذلك يكون لتفاوت درجة الذكاء بين المؤثر والمتأثر دورا فى دفع التأثير لقبول الإنكار دون المبالغة فى الاستقصاء من ورائها .
- ٤ — وجود الشخص المتأثر فى لقاء جماعى فهذا مما يضعف من مستوى تفكيره وادراكه للمسئولية وقدرته على النقد وبالتالى يصبح منقادا وراء المجموعة وتذوب شخصيته فيها وهذا بالعكس اذا ما كان الفرد بمفرده فىكون أقدر على التروى والبحث والنقد والتمييز .

أثر الاستهواء فى التكوين الاجتماعى

مما سبق نستدل على أثر الاستهواء فى تبادل الأفكار وخلق التحام فكرى

وعقائدي بين أفراد المجتمع الواحد وجعلهم يندمجون في أفكار واحدة قد تتعلق بالدين والتقاليد والقيم الأخلاقية والمفاهيم المتوارثة .

ومن هنا تتمكن المجتمعات من الحفاظ على تراثها الثقافي والقومي عن طريق استخدام مالمدي النفوس البشرية من استعدادات فطرية كامنة في أعماقهم تهيئهم للترابط والالتحام الفكري والسلوكي وتلاقيهم نحو غاية واحدة .

وامام ظاهرة الاستهواء قد تعترض طريقنا ما يكمن في النفوس من استعدادات فطرية أيضا من حيث غريزة الشك التي تعتبر من القوى المضادة للاستهواء . من حيث أنها تبعث في النفوس ملكة النقد والتشكك والمناقشة والتأمل والتطلع والبحث وراء البراهين والاستدلالات الكافية لاجتذابهم نحو تلك الأفكار والعقائد الجديدة لاعتناقها والامتزاج معها .

وعليه فلضمان انتقال الفكرة بين أفراد المجتمع الواحد بسهولة ويسر وما يترتب عليها من توطيد الصلات بين أبنائه وجعلهم أكثر ترابطا وقدرة على التفاهم والانسجام الروحي والمادي فيجب ان تراعى تلك الدولة في اعلا خير العادات واحسن المبادئ التي لا تترك مجالا أو ثغرات للنزعات المتشككة حتى تخلق النفوس المتكاملة السامية - فاذا ما كان هناك استهواء ما بين الأفراد ضمن سلامة غاياته وحتمية الارتقاء بالنفوس أو حمايتها من الانحرافات والتمسك بالعادات والمبادئ الخالدة .

وأخيرا فيجب على كل بيئة لا تسرف في عملية الاستهواء والا فقد تؤدي الى اضعاف شخصية أبنائها وذبول ملكات القمد والقدرات على التفنين والابتكار .

المشاركة الى جدانية

تلك الظاهرة لا تظهر دلائلها إلا عندما يجد المرء نفسه في جمع من الافراد يمر بهم ظروف معينة فتولد عنها حالات وجدانية خاصة ذات تعبير واضح قد تلحق بهم جميعا أو تختص بفئة منهم وتنتقل من شخص لآخر حتى تصبح في النهاية حالة وجدانية متشابهة لدى الجميع ولهذا الظاهرة من الآثار في هذا الجمع من حيث تماسك ونجاس أفراده وتعتبر كرباط قوى يجمع ما بين القلوب وتوحد بينهم .

هنا وقد تصبح من الأمور الشاذة أن يوجد شخص أو فئة في مجموعة كبيرة تمر بحالة وجدانية خاصة وتلك الأقلية تشد عنها ولا تتجاوب مع أحاسيسها ومشاعرها وعليه لا تستطيع تلك الجماعة أن تقبل ببساطة وجودهم بينهم حفاظا على الشعور السائد من حيث النجاس الوجداني .

كما سبق يمكننا أن نستدل على أن هناك نزعات عامة ودوافع داخلية تدفع الفرد لانتهاج سلوك معين كما وانه توجد بجانب تلك النزعات دوافع أخرى ثانوية يكتسبها الأفراد بموجب وجودهم في نطاق جماعي وتتفاوت فيما بينهم تبعاً لعدة عوامل ومن تلك الدوافع الثانوية العادات والتقاليد والعواطف والعقد النفسية .

العادات

توجد في نفس البشرية من الاستعدادات ما تجهل الإنسان يكتسب ميولا خاصة لأداء سلوك على النحو الذي يعطيه تميزا خاصا يميزه عن غيره .

فالعادة : هي عبارة عن سلوك معين ينشأ عن الفرد بنمط آلي متكرر لأنها عمل واحد أو عدة أعمال أو أنها تعنى الحفاظ على منهج معين وأسلوب خاص لأداء سلوك معين على نحو آلي مكتسب يؤدي بدوره الى أداء العمل بسرعة واتقان وبدون جهد .

وبلا شك أن لكل منا احساسات ووجدانات خاصة وأسايب تميزه ونرى هذا يتمثل في تكرار عمل واحد وبصفة مستمرة لما يعود على صاحبه بلذة أو فائدة معينة ويظل هذا التكرار الإرادي في الاستمرار حتى يصبح عادة مكتسبة وتتمثل تلك الصورة إما في عادة حركية حرفية أو عادة عقلية من حيث طريقة المنطق والتفكير وإما في اختصاص صاحبها بهـاطفة معينة تسود باقي غرائزه .

اكتساب الشخصية للعادات والتخلص منها

فمن الواضح أنه يمكن عن طريق تتبع سلوك شخص التنبؤ بسلوكه بعد ذلك على أثر ادراك طابعه وانعكاس شخصيته وروحه على سلوكه ويصبح له لون واتجاه معين وأسلوب خاص ومن هنا ينبغي على المجتمع من أجل التحرر من الجـود والتقاليد البالية التي تعوق التقدم وتمرض طريقة نحو الرقي أن يهتم بأفراده من حيث مدى اكتسابهم للعادات الحسنة والتخلص من ما هو مسيء وأن تكون هناك مفاهيم عليا تتضمن في محتواها أعمق معاني الكمال والتي تتفق وتتلاءم مع الميول والاستعدادات الاجتماعية الشائعة .

وان كانت العادات لها من المميزات ما تعود على صاحبها بسرعه ازاء ذلك العمل واتقانه إلا أنها في نفس الوقت تؤدي الى الجـود من ابتكار أساليب جديدة متطورة وهذا ما تبلور آثاره على نطاق أعم وأشمل من حيث وقوفها عقبة في

سبيل رقي للفرد وبالتالي المجتمع عامة إذا لم يكن هناك من المرونة والقابلية ما يساعد على تحرر النفوس وقد عبر الفيلسوف الفرنسي جان بجاك روسو عن ذلك فقال « خير عادة ألا يكون للمرء عادة ما » وكما انتشرت العادة في المجتمع ورسخت جذورها فيه كلما اقتربت من صفة التقليد ، ومن هنا تأتي حماسية العادات في المجتمع من حيث كونها سامية متقدمة تنهض به واما أن تنصف بالانحطاط فتجحف به عن السمو والكمال .

التقليد

وظاهرة التقليد تعتبر من العوامل الهامة في تشكيل المجتمعات ومن حيث كسب الأفراد لأساليب السلوك المتباينة .

والتقليد من حيث أنه يتمثل في انتقال السلوك بين أفراد المجتمع فهو يعتمد في وجوده على مدى الرغبة المتوفرة للشخص المقلد وتدفعه لاختيار سلوك معين والتشبع بظواهره وبالطبع ان يكون الدافع فحسب هو كل المقومات التي يحتاجها الانسان للاختيار وانما تتوقف ايضا على المقدرة المتوفرة لدى هذا الشخص والامكانيات التي تتوفر لديه لتمكنه من انتاج هذا السلوك .

ولو تتبعنا ما وراء تلك الظاهرة والدافع الى وجودها في نطاق اللقاءات الاجتماعية لوجدنا أن من البواعث على تقليد الأشخاص لسلوك معين لفرد أو أفراد آخرين تنحصر من حيث غايتها في الفرض النهائي من التقليد والآثار التي تترتب عليه وتعود على صاحبه من ورائه ، كما وانه في ممارسة التقليد قد يتوقف على مدى اعجاب شخص بصفات معينة تتوفر في شخصية مشهورة وقد يؤدي هذا الاعجاب بدوره الى امتصاص حركات هذه الشخصية وتصبح

كطابع خاص له أيضا .

والتقليد كإيحاء ينتقل من فرد لآخر يتعدد في أنواعه من حيث كونه تقليد فردي أى من فرد لآخر أو تقليد مقصود أو غير مقصود .

ومما لا شك فيه أن التقليد آثاراً بالغة العمق في الكيان الاجتماعي من حيث كونه وسيلة فعالة في نقل العادات والتقاليد المختلفة والحفاظ عليها ثم بالتالي توارثها جيلاً بعد جيل كذلك توارث واكتساب المهارات الفنية المتداولة في المجتمع .

وإذا ما اهتم بتلك الظاهرة في نطاق المجتمع لانتخذت وسيلة ناجحة للبحث في النفوس كثيراً من النواحي الدينية والخلقية والاجتماعية بحيث يتمثل هذا السلوك بصورة متكاملة خالدة ويخلق بهذا معايير سامية ومفاهيم لآداب السلوك الانساني .

العواطف وأثرها في التكوين الإخلاقي

الإنسان بمالديه من استعدادات فطرية وعادات وجدانية تتمثل في أحاسيس ومشاعر تبع الوجوده في تكوين اجتماعي وما يترتب عن مروره بتجارب واحتكاكات خاصة مع من يجاوره يشعر باستثارة معينة في تلك الظروف من جراء ما يتولد من انفعالات يتطلبها كل موقف أى أن سلوك الأفراد تكون غالباً مرتبطة بمؤثرات واحتكاكات خارجية .

وقد أشار « ماكليود جيل » في أقواله عن العاطفة « إنها كجزء من

تكوين العقل أو كاستعداد عقلي اذا توفرت شروط تجتمع في صاحب العاطفة وفي مجال حياته وفي أثناء الاستثارة فينفعل ويظهر سلوكه وكل انفعال وسلوك يختلف باختلاف الموقف الذي تحدث فيه الاثارة.

ومن ثم فالانسان بما لديه من استعدادات فطرية مختلفة متباينة قد تؤدي الى تكوين أوضاع لها شيء من عدم التنظيم لو ظلت على صورتها الفطرية البدائية ومن هنا جاءت العواطف بشيء من تنظيم السلوك على درجة أرقى من مستوى الغرائز بحيث تتحكم فيها وتوجهها نحو وجهات متطورة تبعاً لممارسة الفرد للتجربة والخبرات الناتجة عنها والعواطف تكون ناتجة عن واقع مادي أو واقع معنوي والعواطف المادية تكون ناشئة عن انعكاسات للواقع المادي الملموس الذي يمكن لصاحبها أن يدركها بالحواس أما العواطف المعنوية وتنتج من انعكاسات لواقع غير ملموس كعاطفة الحب وتذوق الجمال والتقرب من الخير والحق والانسانية وقد يكون في التكوين العاطفي للانسان عاطفة سائدة توحد ما بين وجهات العاطفة والتزعات المختلفة الكامنة في النفس بحيث توجه كافة نشاطه العقلي نحو غاية واحدة لا شباها لها من سيطرة على تفكيره ومشاعره .

ومن هنا تتبلور أهمية العواطف في التكوين الاجتماعي بحيث يمكن توجيهها توجيهاً سليماً لصالح المجموع وتصبح قوة دافعة للتقدم والرقى بحيث لا تنحرف وتنفصل عن الاطار العقلي والفكر المستنير .

فليس هناك أعمق تعبيراً من التوفيق بين الغايات والسلوك خلال المجتمع الواحد مثل توحيد العواطف وتوجيهها نحو الحق والخير والجمال والوطنية فهذا هو السبيل الواضح المعالم الذي يؤدي الى الابداع والتفنين والابتكار والتماس

اماليب للنجاح فى الحياة والارتقاء بالارادة الانسانية فى حدود الاطار
الخلقى الكامل .

وعلى سبيل المثال اذا ما كانت العاطفة السائدة هى « حب الخير » فنجد
أن الجهود الانسانية نتيجة لتحقيق هذا الاتجاه فتتصبب اطلاعات الفرد على المثل
الاخلاقية والمبادئ الانسانية السامية وتتلور الحقوق الخالدة ويتقرب السلوك
البشرى عامة الى ما يحقق تلك المفاهيم وتعمل على أن يسود الاخفاء
والسلام والاستقرار .

الكبت والعقد النفسية

الطبيعة البشرية مائلة بفطرتها للانطلاق نحو اشباع رغباتها وجوانحها واذا ما اندفعت نحو تحقيق مآربها نجد أنها تصطدم بواقع الحياة بما فيها من قيود وضوابط حابكة والتزامات من الفرد نحو مجتمعه .

وهكذا تصبح النفس في صراع داخلي يدفعها نحو تحقيق نزواتها الطبيعية ودافع آخر يجبرها للرضوخ لنواحي البيئة واعتباراتها فاذا ما ازداد هذا الصراع وحال دون أن تصل الى مطالبها فقد يؤدي الى حالات من الكبت والامراض النفسية وعقد تشيع في النفس من القلق والاضطرابات ما يضعف النفوس ويشثت الطاقات والقدرات .

وعليه فتقع على المجتمع مسئوليات جسيمة من حيث وضع المناهج المنظمة التي توضح على أسس علمية سليمة لحقيقة النفس البشرية ومطالبها ويجب أن تعمل السلطات والمجتمع على تعديل وتطور الغرائز بما يلائم لقيام مثل هليما . فإن من الواضح أن الخلق المتين القائم على الايمان والتفهم قد يخلق النفوس القوية ويجعلها تصمد أمام التيارات المتضاربة وتشعر صاحبها بالكرامة وتنمية الضمير .

تكامل الشخصية

مما سبق نستمد على أنه من خلال السلوك الانساني في نطاق بيئته الاجتماعية قد نتمكن من الاستدلال على حقيقة الطبيعة البشرية ومدى سيطرة الغرائز والدوافع على الفرد وتحكمها في سلوكه .

فالفرد بحكم كونه متأثراً بمجموعة من الاستعدادات سواء أكانت فطرية أو مكتسبة يمكن الحكم عليه من حيث مدى تكامل أو اهتزاز شخصيته وتبعاً لمدى التنسيق بين النزعات الفطرية والمكتسبة في نفسه ونوع العاطفة المائدة التي تتحكم فيه .

والبيئة الاجتماعية بكونها تحتوى على فئات عديدة متنوعة من الأفراد فقد يكون الاختلاف بين شخص وآخر يرجع الى ثلاثة مؤثرات :

(١) الاستعدادات البيولوجية والنفسية

(٢) البيئة

(٣) مؤثرات خارجية عامة

وكان الانسان دوماً يفتش عن جوهره وجوهر وجوده واختلفت الآراء بالنسبة لكل عصر ولكل انسان ولم يعرف لوجود الانسان والكون مفهوم واحد حقيقى ولذلك فالمقاييس التي يمكن أن تتوصل اليها هي في حقيقة محتواها مجرد مفاهيم عامة لا يمكن لنا أن نعتبرها مقاييس ثابتة دائماً لأبعاد وآفاق غير محدودة .

واذا ما كان المجتمع يتألف من مصالح متضاربة ومتباينة تجعل كل فرد لا يفكر الا في مصلحته وتحقيق حاجته فلا شك أن هذا سوف لا يؤدي الا للاضطراب والفوضى والتفكك . وهكذا النفس البشرية فلو تصارعت الفرائز والانفعالات والميوان والأحاسيس بحيث يحاول كل منها أن يستأثر بسلوك صاحبه على النحو الذي يشبعها فيه ويحقق لها مطالبها وشهوتها فلا شك أنها

منؤدى بصاحبها الى الاضطراب النفسى وانحراف السلوك واهتزاز الشخصية
بعكس اذا ما كان هناك توفيق بين تلك الغرائز والانفعالات وأصبح السلوك
البشرى هو وسيلة لتوزيع أقساط متساوية عليها فلاشك أنها سوف تنعكس
آثار هذا التنظيم والتوفيق على اعطاء سمات عليا لصاحبها من حيث الاستقرار
والانزان والتكامل وبحيث لا يكون هناك تعارض بين النزعات المختلفة وانما
هناك تناسق انفعالى وانزان فى السلوك والتصرفات .

ومن ثم فلانسان اذا ما تحكم بما يدور فى داخله من احساسات وخواطر
ونزعات ووفق فيما بينها من حيث الاتزان والاستقرار يصبح من ذوي الشخصية
المتكاملة المتزنة ثم ينبثق بعد ذلك أثر البيئة بما فيها من مظاهر اجتماعية وأوضاع
معينة ومفاهيم خلقية خاصة بها من حيث أثرها فى أن تزيد من تلك الاستعدادات
الانسانية وتسمح له بممارسة هذا التفاعل المتناسق وترتقى به أو تخاق له اضطرابا
فى الأوضاع يحطم تلك الاستعدادات والاحساسات ويشتمها ويجعله يعيش فى
فراغ لانهائى لا يدري ماذا يريد وأين ينتهى وكيف يصل الى استقراره الروحى
والمادى .

الأخلاق

وعلم الأخلاق هو أسمى غايات المعرفة لقدرته على ضبط السلوك البشرى
وتوجيهه نحو غايات متكاملة سامية يعبر عن أسمى مظاهر الوجود الإنسانى . . .
وبالتالى فهو قادر على خلق التوافق بين الغايات الفردية والتضامن بين الفئات من
أجل خلق مجتمع السعادة والكمال والاستقرار .

وكما هو مستدل على علم الاخلاق فى الفلسفة اليونانية بانه «مجرد مجموعة

قواعد تعليمية غير ثابتة ، الغاية منها هو الارتقاء بأحوال بني الانسان والسمو بها وتحسينها » ثم تخطط لهم منهجاً متكاملًا عما ينبغي أن ينهجوه ويسيروا بمقتضى تعاليمه وحدوده ثم بالتالى ينهاتهم عما يجب أن بهجروه من أعمال قد تؤدي الى الاضرار بهم .

ومن ثم فعلم الأخلاق غايته إصلاح النفوس والأرتقاء بها الى آفاق السعادة والكمال والخلود الذى يحدد لهم أبعادها ومظاهرها ومدى توافر الاستقرار والهدوء للنشأت البشرية وذلك لأن المبادئ الاخلاقية دائماً وأبدا تدعو الى الفضيلة والعفة وهما جناحا عمل الخير الذى هو بدوره أساس السعادة والتوفيق بين النشاط الإنسانى عامة .

الاخلاق والمجتمع :

لا شك أن الكمال والسعادة والخير هى ما تصبو اليه النفس البشرية وتتطلع لها بلهفة واشتياق وتتقرب نحوها بصورة ارادية أو لا ارادية حيث أنها صدى لمطالباتها على مر الأجيال وتعبير عن مكونات النفوس عامة .

ومن هنا فالنفس البشرية تجعل من السعادة الغاية القصوى للسلوك والأفعال والتصرفات فى نطاق المجتمع وطالما أن الاخلاق هى الجوهر الذى يحمل فى ماهيته السبل التى تؤدي بدورها الى الكمال الاجتماعى من حيث توافر الحق والخير والسعادة ، وبمعرفة قانون مكونات الاخلاق يمكن استكمال أوجه النقص فى الحياة الانسانية وفتح آفاق شاسعة للأفعال السامية والخصال الحميدة والطاقات المتكاملة .

مكونات الأخلاق:

ويتتبع مسراحل الجمود الانسانية ومحاولاتها للخلق والابتكار من حيث النظم والقوانين والعلاقات المادية الروحية نجد أنها مقلدة للطبيعة تقتبس منها وتهتدى بفضائلها وتتفاعل معها . فاننا لانكاد نجد اختراعا منها كان إلا ونجد له مثيلا في الوجود النوعي من حيث مظاهر الطبيعة ذاتها .

ومن ثم فيخلق النظم الإجتماعي والقواعد الحاكمة للسلوك الإنساني يجب ألا تبتعد عن أذهاننا أثر الطبيعة المحيطة بالإنسان من حيث تأثيرها في تبديل أطواره وأخلاقه ومظاهر وجوده بحيث تذهب الى أوضاع يمكن بموجبها وقواعدها أن تستجيب الى مقتضيات الاقليم وظواهر الطبيعة المحيطة به ، ومن هنا فقد اختلفت أخلاق الأمم باختلاف أقاليمها وتبلور هذا في تلك الفروق الشاسعة بين أخلاق أهل البادية عن أهل المدن وأخلاق سكان الوديان والسهول عن أهالي الجبال وهكذا ...

ويتتبع أصل نشوء القواعد الأخلاقية ومسببات ظهورها نجد ان للعقل والفكر الإنساني دخلا كبيرا من حيث تكوينها وابتكار قواعدها وسنننها ، فالإنسان بحكم وجوده وتطوره في نطاق التقاء جماعي نجد أنه قد توصل بفكره الى خلق قواعد أخلاقية تنظم فيما بينها من علاقات مرجعها تبادل المنافع والوقوف على ماهية الحقوق والواجبات فاضطراره الى هذا الالتقاء الجماعي دفعه الى تكييف الاخلاق اللازمة لتلك الظروف والمقتضيات .

فالفرد من حيث ذاتيته وكيانه فله واقعين أحدها ذو صفة فردية وآخر جماعي وعليه إما أن يحقق ذاتيته الفردية بما فيها من انفعالات وغرائز وميول

وهذا بالطبع لن يتأتى إلا في صومعة الانعزال أو الاصطدام المستمر بمن يحيطون به ، وأما أن يتنازل عن جزء منها في سبيل الاحتفاظ على ما تبقى وعلى استقراره في هذا الالتقاء الجماعي .

وعليه فقد استمد من خلال ارادته ورغبته في الحياة والاستقرار طاقة وقدرة في كبت رغباته والتذرع بالصبر والتنازل عن بعض حقوقه الطبيعية في سبيل مصالحةته ومن أجل ضمان بقائه والاحتفاظ بباقي حرياته وحقوقه - ومن هنا أصبحت تلك الاخلاق عادة ثم صارت على مر الأجيال والسنين استعدادا فطريا وغريزيا يبدأ بتوجيه وتحكيم العقل والتفكير وفقا للاحوال والظروف، ثم تعمل الارادة بتوجيه السلوك بصفة اضطرارية متعاقبة وبتكرار هذا العمل يصبح عادة تتوارث بتوالي السنين والأجيال حتى ينتهي بها الحال وتصبح خلقا متميزا لتلك الجماعة الانسانية .

وعلى هذا النمط تكونت القواعد والسنن الأخلاقية بتعاقب السنين ويختلف بين الأمم تبعاً لاختلاف أقاليمها وسائر ظروفها وباختلاف أطوار مدنياتها أيضا وتبعاً للمؤثرات التي تنسأل عليها وتؤثر في تشكيل المعايير الاخلاقية بحيث تكون تلك المبادئ الأخلاقية واضحة متكاملة لا تحتاج لبراهين معينة لجذب الفئات نحوها وذلك بكونها لا تحمل شكا أو جدلا ، وباعتبارها قاعدة للسلوك الانساني عامة تستهدف خلق مجتمع متكامل تسوده نظم وعلاقات لا تضارب فيها أو تعارض وانما تجانست من حيث الغاية والوسيلة فلو فمعنا في هذا الهيكل المتلاحم المنسجم لوجدنا أن لهذا التكامل درجات وطبقات ... وأبعاد ...

مكونات التكامل الاجتماعي :

للتكامل الاجتماعي درجات تتمثل في مدى الحاجة المتبادلة التي تخلق الروابط والعلاقات التي توثق الصلات بين أفراد المجتمع مع بعضهم كذلك بقدر تقسيم العمل وخلق النظم الفعالة التي عن طريقها يتم إشباع الحاجات اللازمة للبقاء والاستقرار .

والتكامل الاجتماعي هو مدى تفاعل الأفراد واستجاباتهم للقيم والمفاهيم والضوابط الحاكمة التي تنظم السلوك الفردي ، ومدى تبلور المظاهر التي تعبر عن تلاقى الأفراد نحو الوصول الى هدف واحد وغاية مشتركة تنهار أمامها التناقضات المختلفة والصراع الهدام ويصبح للجماعة من الالتحام الفكري والمادي ما يمكنهم من الصمود أمام الهزات التي قد تعترض طريقهم وتحد من انطلاقهم نحو الكمال والاستقرار والرفاهية .

وكلما كانت القيم والمفاهيم ، التي تعالو هذا الالتقاء البشري ، من الواضوح والتعمق كلما كان اكتسابها دون وعي أو مشقة ، وبالتالي تؤدي الى خلق الرضا العام والاستقرار الروحي الذي هو في الواقع من أهم الاستدلالات والظواهر على هذا الكمال الاجتماعي .

ومن هنا تتضح حاجة البشرية لبهارة غاية الوجود الانساني في صورة قيم ومفاهيم أخلاقية سامية تمجد الانسان وتحترم حقوقه الخالدة من حيث الحياة وتضعها في صورة انسانية كريمة تحقق ذاته وكيانه وتعطى له الفرصة الكاملة لممارسة الحياة الاجتماعية في أرفع صورها وأكثرها كمالا ورفاهية .

والأخلاق يكونها أسلوبا بناءً أرفيما قادرا على هداية الإنسان نحو نور الحق ..

ويحول دون وقوعه في أحضان الرذيلة والانحراف .. فهي في حد ذاتها
تتصدر المناهج التي تقود البشر الى أوضاع التكامل في كافة مجالات الحياة . .
ومن هنا أيضا نستدل على حساسية هذا العلم من أجل استكمال مظاهر التكامل
الاجتماعي والمدى الذي يؤثر به نحو خلق هذا التوافق بين الفئات البشرية بتباين
مستوياتها المادية والفكرية في نطاق المجتمع الواحد . وعليه فكلما كانت القيم
والمفاهيم الأخلاقية أكثر ارتباطا بالواقع الانساني كلما كانت جذورها تمتد
الى أعماق بعيدة في داخل النفس حتى تنعكس آثارها المخالدة السامية على السلوك
البشرية بصفة عامة .

والمجتمع بحكم تكوينه من فئات متباينة يتحتم عليها أن تضع مجموعة من
القواعد والنظم التي عن طريقها يتم التوفيق بين الواجبات والحقوق فيما بينها وذلك
من أجل تحقيق الغايات الأساسية من وراء هذا الالتقاء . كذلك توضع التشريعات
اللازمة لتنظيم حقوق وواجبات الافراد قبل أمتهم - ثم يلي ذلك التشريعات
نحو وضع الضمانات اللازمة للحفاظ على تنفيذها في حدود امكانيات
المجتمع .

وبهذا يمكن أن يتحدد مدى تقارب هذا المجتمع من التكامل والانسيجار
بالمدى الذي تصل اليه استجابة الافراد نحو تلك التشريعات ومدى استقرار
المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

والانسان بما له من واقع مادي وواقع روحي فلن يحدث هذا الاستقرار وهذا
التكامل من خلال تلك النظم والمفاهيم الا اذا كان هناك اتزان مابين الجانبين
وتوفيقا بين مطالبها على السواء .

وهكذا فعلى السلطة المنظمة أن تعمل على :

أ - التوفيق بين مطالب الفرد ومطالب غيره :

ب - ثم يلي ذلك تقديرنا ووزنا لتلك المطالب المتباينة وحدود امكانيات الدولة المتوفرة لديها.

ج - ان يكون هناك تقدير لتلك التفاعلات النفسية التي تتأصل جذورها في النفس البشرية

فإذا تمهنا في مجتمع من المجتمعات الانسانية من أجل اعطائه درجة الكمال والرقى الخلقي - فتلك المعايير ولاشك أنها ستستند على معايير الأفعال والسلوك البشرى في تلك البيئة الاجتماعية ومدى توفيق النظم والأحكام الأخلاقية المتداولة فيما بين هؤلاء الناس والغايات التي تصبو اليها نفوسهم وأعمالهم . . .

ومن ثم فأننا نجد أنفسنا أمام مفاهيم نسبية لا تتوافر لدينا في صورة ثابتة أو قواعد لا تتغير على مر السنين أو باختلاف المجتمعات - ولكننا سنحاول أن نصل الى تلك المفاهيم ووضع صورة ثابتة لها بقدر الامكان وذلك من خلال استعراضنا لصفحات التاريخ بما تتقنه من مفاهيم وقيم مختلفة التي استهدفت في مضمونها معايرة السلوك البشرى من خلال بعض الفلسفات الخلقية والحكم عليها من حيث ايجابيتها أو سلبيتها ومدى توفيقها أو فشلها نحو الارتقاء بالوجود الانسانى عامة ضابطة للسلوك الانسانى ومقياس للتمييز بين الخير والشر والسعادة مجردة جميعها من الزمان والمكان .

سقراط والفلسفة الخلقية :

كان سقراط هو أول من أرسى جذور الفلسفة الخلقية في الدولة اليونانية القديمة حيث أنه انحرف عما كانت عليه الفلسفة من حيث تخصصها في دراسة الميتافيزيقيا وعلوم الطبيعة واعتبرت السلوك الانساني ذا مكانة ثانوية في مجال البحوث والتمحيض . ولكننا نجد الفيلسوف سقراط قد إهتم إهتماما بالغا بدراسة السلوك الانساني وبارسائه جذور علم الأخلاق ومحاولاته في وضع مقاييس ثابتة تجري بموجبها معايير خيرة الأفعال وشرها .

الفلسفة السفسطائية

وقبل أن نتعرض لفلسفة سقراط الأخلاقية قد يفيدنا استرجاع الفلسفة السفسطائية التي نددت بالقيم والمثل الأخلاقية واعتبرتها مبادئ جوفاء ومجرد عدة قوانين وتشريعات خلقها بعض القوم الضعفاء من أجل الحفاظ على وجودهم وممتلكاتهم أمام الحقوق الطبيعية وسنة الحياة من حيث حق القوى في السيطرة على الضعيف وبالتالي استسلام الضعفاء لمن هم من ذوي القوة والبطش ولديهم من القدرات والأمكانيات ما يساعدهم في الحفاظ على تلك الحقوق المكتسبة قبل الطبيعة .

ونرى أنهم قد اتجهوا بتفكيرهم الى أبعاد أخرى حيث أنهم اعتبروا تلك القيم الأخلاقية ماهي الا عشرة أمام الطبيعة البشرية من حيث انطلاقتها وكبح شهواتها واهوائها واستقروا بأن :

« تلك القيم من حيث تمجيد العفة مرجعها الى العجز عن اشباع الشهوة »

وامتداح العدل مرده الى القصور عن التفوق على الآخرين » (١)

كما أشاروا الى أن اللذة غاية لسلوك الانسان عامة باعتبار أن الطبيعة البشرية ما هي الا حشد لعدة شهوات ونزوات يجب أن يترك لها العنان ويسمح لها بحرية الانطلاق من أجل اشباعها ولا يعيب الفرد وفقا لتلك المبادئ أن يستتر وراء الطبيعة والسلوك الانساني اذا ما كان هذا يؤدي بدوره الى اشباع تلك النزوات والشهوات وعليه أباح السفسطائيون الانسان أن يسير وفقا لاهوائه وشهواته لأن ذلك في مفهومهم هو طريق السعادة والكمال والاستقرار الروحي والمادى .

فلسفة سقراط :

على أنقاض الفلسفة السفسطائية أقام سقراط دعائم فلسفته الأخلاقية وحاول استنباط قواعد أخلاقية ثابتة تلائم كل زمان ومكان . وقبل أن نتعرض لفلسفة سقراط نلقى نظرة سريعة على حياة هذا الفيلسوف كإنسان لا يعرف الخطأ طريقا له ولم يستطع أحد أن يجد ثغرة ما بين منطق وسلوكه يحاول أن ينفذ من خلالها بالنقد والتجريح فكان سقراط إنسانا يعرف كيف يحرر نفسه من قيود الشهوات وكبح جماحها والاحتفاظ بصفاء الروح ونقاء الجسد والتحرر من آثام الخطيئة .

وأمام تلك المبادئ والمثل التي يتحلى بها هذا الفيلسوف أخذ يمجّد العقل ويجعله الأداة الحابكة والضابطة والذي يمكن الانسان من السيطرة على شهوات الجسم وأداة للتحكم في النزعات والأهواء ونفى سقراط ما زعمه السفسطائيون من حيث كون الجسم والطبيعة البشرية مجرد حشد للنزوات والنزعات والغرائز

(١) الفلسفة الخلقية (دكتور توفيق الطويل)

والشهوات وانما الطبيعة البشرية في مفهومه هي جسم وعقل يسيطر على الدوافع والغرائز والنزعات الكامنة فيه .

وانتهى سقراط بأنه طالما أن العقل هو الحاكم والضابط للسلوك البشرى فلا ريب بأنه اذا ما أرست جذور المعرفة الحقة وقوانين الأفعال الكريمة في هذا العقل فانه بالتالى ستنعكس آثار تلك المعرفة على السلوك البشرى ومن هنا جاء قول سقراط بأن الفضيلة هي وليدة المعرفة .

وعلى هذا النحو اتجه سقراط لوضع قوانين ثابتة للأخلاق وتغاضى عن الدوافع الارادية في النفس البشرية وأثرها في توجيه السلوك البشرى عامة وانتهت فلسفة سقراط بأن السعادة هي الباعث الأول على مزوالة أعمال الفضيلة التى هي بدورها غاية الحياة الانسانية .

المدرسة الكلبية

أقسام « أنتستينز » تلميذ سقراط بإنشاء مدرسة تدّين بتعاليم سقراط ولكنها وضعت لها منهجا معيناً كاد يشوه تلك الفلسفة السقراطية وذلك بأنها استهدفت السعادة الروحية غاية لها تنطلق نحوها بحياة يسودها التقشف ونكران الذات وكبت الشهوات حتى أنها قد أباحت للناس التجول في الطرقات يسألون عن طعامهم واتخاذ المعابد مأوى لهم . واستقر رأى « أنتستينز » على أن السعادة يمكن أن يجدها الفرد في داخل نفسه وأعماقه .

ولا شك أن تلك الفلسفة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون هي التعبير عن متطلبات النفس والذات الانسانية وإنما هي تشوه مظاهر هذا الوجود وتدعو الى التكاسل وإهمال المعرفة وقد جاء نقد تلك المدرسة على لسان كل من افلاطون وأرسطو واتهما « أنتستينز » بالحق وبلادة العقل والقصور في التفكير .

فلسفة افلاطون الأخلاقية

اتجه افلاطون لوضع معايير ومقاييس ثابتة للأخلاق ليست على منهج سقراط بوصفها قوانين مطلقة متجمدة وإنما اتجه الى جعلها أكثر اقتراباً من المظاهر المشتركة في طبائع الانسان .

واعتبر افلاطون أن الأفعال المعبرة عن الخير هي مصدر الوجود والكمال الانساني كما وأن الفعل الاخلاقي هو ما يحمل في باطنه مبرارته وغايته وبهذا يجعل افلاطون الغاية مقياساً لخير الأفعال وشرها وإنما الأفعال السامية هي التي تحقق غاية سامية ايضاً - وهذا التقدير بالتالي يكون عن مدى انصالتها بالخير الشامل والآفاق الانسانية عامة .

ونرى أن افلاطون قد اتجه لوضع مكونات ثلاثة للنفس البشرية :

أ - النفس الشهوانية وغايتها اشباع حاجات الجسم المادية

ب - النفس الغضبية وتهدف للقتال وتديرها فضيلة الشجاعة

ج - القوة الناطقة وتنشد المعرفة والتعقل وتديرها فضيلة الحكمة .

والكمال النفسى بصفة عامة فى فلسفة افلاطون تقتضى بأن يكون هناك اتزان بين تلك النزعات مع عدم اطلاق العنان لاحدها حتى تطفئ وتسيطر على باقى النزعات وتنفرد بالتأثير المباشر على السلوك الانسانى وهذا ما يؤدى بدوره الى السعادة والكمال النفسى وهما غاية الوجود الانسانى مع العمل الدائم المستمر لتنمية كل منهما ولكن على أسس متزنة سليمة هادفة للرقى وتنشد الكمال .

وهكذا فلم يتجه افلاطون نحو جعل اللذة الحسية هى غاية الحياة البشرية أو أن مجرد التصوف والانعزال قد يؤدى الى تحقيق مفهوم السعادة ، وانما عمل الى جعل الخير الأقصى ان يتأتى الا بالمعرفة ثم بالعمل على تنمية ملكات التسدوق والاحساس بالجمال والخير والحق وهذا لا يعنى بالتمتع عن الذات الحسية وانما فى الحدود التى لا تجعلها تنوء بصاحبها عن سنن القواعد الاخلاقية الفاضلة .

فلسفة أرسطو الأخلاقية

تمتاز فلسفة أرسطو أنها فلسفة مؤسسة على الواقع وقائمة على أسس تجريبية مقتطفة من الحياة العملية ومفردات الحوادث اليومية - وقد اتجه أرسطو الى ان لكل انسان فى الحياة وظيفة مسئول عنها وعن آدائها وبمقدار دقته فى آدائه لعمله يكون قدر كماله . كذلك يكون مدى تقرب الانسان من الخير الأقصى والسعادة مقترنا بمدى تأثره بالتأمل العقلى والخضوع له .

ولم يتوصل أرسطو الى هذا المنطق الا بعد ما كان هناك تقدير منه لحقيقة الطبيعة البشرية والسلوك اللا ارادى واستناده على العقل الذى قدسه أرسطو وجهه الى العضو المقدس فى الانسان من حيث ادراكه وفهمه للحقائق . فهذه الخاصية فى نظر أرسطو هى الميزة للانسان عن باقى المخلوقات فاذا ما أهمل حياة العقل والادراك فقد تبعده هذا عن مظاهر الوجود الانسانى بل تقرب به من الحياة الحيوانية .

وان الفضائل فى نظر أرسطو تكتسب بغرس العادات الفاضلة ثم بالمران والتعود عليها حتى تتولد العادة التلقائية لممارستها وعليه فالجهل فى نظره ليس عذرا للاهمال أو الانحراف ومن ثم فقد كانت مزاولة التأمل والتفكير والسمو الفكرى خلال مراحل ممارسة السلوك قد تؤدي بدورها الى اكمل حالات الوجود الانسانى .

المدرسة الرواقية

تعتبر الفلسفة الرواقية مزيج من فلسفات كل من سقراط وافلاطون وأرسطو - كما وأنها تلتقي بالمدرسة الكلية من حيث حتمية الاستئصال الكامل للأهواء والشهوات .

وكانت الرواقية صفة تطلق على كل من تتوفر فيه عدة عناصر : -
أولا : القدرة على تحرير نفسه من قيود الأهواء والشهوات والنزوات

ثانيا : الانسان الذى يستهدف أعمال الفضيلة ليس من أجل ابتغاء اللذة
وانما باعتبارها واجبا يتمحتم عليه

ثالثا : الانسان الذى لا يخضع للأفراح والأحزان والآلام

رابعا : الاستسلام لقانون القضاء

ومن هنا كان الحكيم أو الفيلسوف فى مفهوم الفلسفة الرواقية هو الذى ينتهج فى سلوكه منهجا يتحكم به فى زمام نفسه وفى عواطفه وغرائزه ويخضع لقانون الطبيعة المطلق المعبر على أن كل موجود فى العالم يكون مسوقا نحو غاية مدبرة لخدمة الانسان ، ويتعرف بمقتضى قوانين الوجود التى تستند على وجود العقل الذى اذا ما اتبعه الانسان تقرب من عالم الكمال .

وهناك علاقات ثابتة بين الحتمية الكونية والحرية والانسانية من حيث أن الظواهر الطبيعية مقيدة بقوانين عامة وعلى الانسان الفرد أن يخطط سلوكه

وفق ارادته وحرية الشخصية وأن يوفق كذلك بين سلوكه وغايته وتلك القوانين العامة التي تسيطر على الظواهر الطبيعية المحيطة به .

كما وأنه ليس هناك أى عائق يحول بين الانسان وبين التمسك بالقيم الأخلاقية الفاضلة ويجعلها هى الحابكة لسلوكه العام خلال المجتمع الذى يعيش فيه - فمن حيث الواجبات التي تقع على كاهله فهو بمفرده صاحب الارادة في أن يقوم بها على خير وجه فهذا من الأشياء التي تحرره من الألم .

كذلك عليه أن يخضع للقوانين العامة التي تسير الكائنات على السواء وتتقبل كل ما يحل به من سراء وضراء بنفس راضية وعزيمة لا تجعله يحيد عن القيم التي يؤمن بها ويتحلى بمثلها وكأن الآلام التي تمر بالانسان ما هى الا تجارب قاسية وظروف اضطرارية تؤدي في النهاية الى ضبط النفس و كبح جماحها حتى تزول تلك الآلام وتدمر بدون رواسب تذكر وكأن تصوير الفلسفة الرواقية للألم تشبيهها للأمواج العاتية المضطربة التي تتلاطم بصخرة راسخة فتغطيها بالمياه ثم تنحسر عنها وتتركها كما كانت صخرة عاتية ثابتة لا يعثرها تغيير يذكر ولا تتأثر بتلك المؤثرات الوقتية .

وعليه اذن فالرواقى الصحيح هو أن يكون منطقيا وعالمًا طبيعيًا ومائلًا للخير وأن يجعل الأخلاق تقود الحوادث والسلوك وأن يحتقر الجانب الحسى في الطبيعة البشرية وأن يتطلع الى مفاهيم عليا يوجه نحوها سلوكه فان فعل هذا ، حقق انسانيته ومجد كرامته وارتقى بنفسه الى انسان متكامل تلتقى فيه جميع الفضائل والمفاهيم الخالدة .

المدرسة الأبيقورية

تعتبر المدرسة الأبيقورية أن اللذة هي غاية الانسان من حيث كونها مصدر الخير وعلى الانسان ألا يغمس فيها وألا ينقاد الى مصادرها باندفاع وبلا تروى والا انعكست آثارها من سعادة وهناء الى شقاء وعذاب .

ويتحتم على الانسان في تلك المرحلة أن يتخلى عن اللذة والمتعة الوقتية ويضحي بها من أجل لذة دائمة تعقبها. واللذة في نظر الفلسفة الأبيقورية هي البعد عن الألم وتجنبه ثم الاندفاع الى المتعة ولكن تحت سيطرة العقل والتروى . وتؤمن كذلك بحقيقة واضحة ذلك بأن الألم ينشأ أثر تعدد وكثرة الحاجات - ومن ثم فمن الأفضل للانسان أن يطرد من أفكاره كل ما يشير في نفسه من حاجات أو انفعالات تبعث الألم في النفوس ، وعلى قدر تجنب الانسان للأفكار السيئة ويمدى احتفاظه للأفكار التي تتناسب مع قدرته وطاقاته وامكانياته كلما اقترب من جوهر السعادة بمضمونها الحقيقي الخالد .

وقد توصلت الفلسفة الأبيقورية الى أن البساطة في الحياة والاعتدال واستقرار النفوس والسيطرة على الرغبات والغرائز الجامحة وعدم السماح لها بالتحكم في السلوك الانساني ما يجعل أمام النفوس طلائع الخلاص من مظاهر الألم والأوهام وتعلو بها عن آفاق الضلال والانحراف والتعاسة .

وكلما عاش الانسان في ذكريات الأيام السعيدة الماضية كلما قلل من

مظاهر الألم التي تحاول أن تسيطر على وجدانه وعواطفه ، وعلى الانسان
التخلي عن لذة عاجلة لها من الآثار ما يتبعها من ألم أكبر وعليه أن يتحمل
الآلام الطارئة اذا ما كان يستتبعها لذة معينة . فالانسان يستمتع بذكرىات اللذات
الحاضرة ويستبشر باللذات القادمة . بحيث يتحتم عليه أن يكون معتدلا لأن
الاعتدال في مفهومه فضيلة أخلاقية، لأن الانسان يمكنه الوقوف عند حدود
اللذات التي اذا ما تعداها نتجت عنها آلام وشقاء .

مما سبق نستدل على أن تاريخ الأخلاق ماهو الا امتداد لفروع الفلسفات
الانسانية . استهدفتها بحوث الفلاسفة والمفكرين من أجل خلق قيم ثابتة أو
معايير يستدل بها على مظاهر هذا الوجود ، وكذلك على مدى تكامن التقائم
الجماعى تحت ظلال تلك المفاهيم والنظريات .

ولو تتبعنا مراحل تطور تلك النظريات الأخلاقية منذ وجودها ومرورها
بمراحل الفكر اليونانى حتى انبثاق النزعات الخلقية فى عصر النهضة ونضارب
النظريات ما بين الحدسيين والتجريبيين والعقليين وظهور الاتجاهات العمالية فى
مجال الاخلاق والفلسفات الوضعية الى آخره — فما كان ذلك هو مجال
بحثنا وانما تكتفى بما اقتطفناه من الفلسفات اليونانية المتباينة باعتبارها نابعة من
دولة كانت نقطة ارتكاز ومصادر انبعاث اشعات فكرية خالدة مازالت البحوث
والنظريات الجديدة تعود اليها وتستند على أسسها وتعاليمها وان كانت تختلف
معها فى مظاهر السلوك تبعاً لتغاير الظروف والأحوال الاجتماعية والثقافية
والسياسية والاقتصادية وغيرها :

ولا يمكننا أن نتقل من تلك المرحلة الى أخرى متقدمة عنهادون ان نتعرض
لموقف الفلسفات الاخلاقية والديانات السماوية واننى لا اجد مجالاً يوقفنا فى

الاسترسال في هذا البحث أجدى من التعرض للالزام الخلقى فى الدين الاسلامى نظرا لما جاءت به تعاليم القرآن فى مجال الأخلاق من قيم عظيمة وآفاق خالدة ليس بالنسبة للحياة العملية للمسلمين فحسب وإنما للفئات البشرية بصفة عامة .

مبدأ الالزام

لاشك أن مبدأ الالزام عنصر أساسى أو محور تدور حوله القواعد الأخلاقية من حيث كونها عدة قواعد تلزم الأفراد باتباعها بأى صورة من الصور .

وبالقضاء على فكرة الالزام يقضى بهذا على جوهر الحياة الانسانية المستقرة التى تستهدفها الأخلاق نحو تحقيقها فإذا ما انعدم الالزام ترتب عنه انعدام المسؤولية وبالتالى تنشأت الآمال من حيث سمو الحق واعتلائه فى سماء البشرية .

وحول تلك الفكرة الالزامية يتوقف مدى فاعلية واستمرار أى نظام من النظم — فإذا لم تستتبع أى قاعدة أو قانون أداة الزامية مادية أو معنوية فإن هذا ولاشك قد يؤدى الى نشأت تلك القواعد والأسس فى أجواز القضاء اللانهاية ومن ثم فإننا لانجد أثرا لكثير من المذاهب والمدارس والفلسفات الأخلاقية التى توالى ظهورها على مر الأجيال ولم يبق لها ذكرى أو قواعد مسطورة بينما نجد كثيرا من القوانين والقواعد الأخلاقية الوضعية لها من الفاعلية والمقدرة على الاستمرار والبقاء وارغام الفئات على الرضوخ اليها وذلك لما يتبعها من فروض عقابية لمن ينحرف عنها أو يتمرد عليها .

كما واننا قد نجد بعض الفلاسفة يتجهون الى الادعاء بإمكان قيام قواعد أخلاقية بدون جزاء ومنهم الفيلسوف جويو ويستعيز عن فكرة الالتزام الجزائي بفكرة التقدير الفني المنبعث من النفس البشرية تحت توجيه الضمير ويستند في ذلك على تربية حاسة الذوق : الفني وملكات الاعجاب بالانفعال الصالحة وميل النفس البشرية نحو التمسك بالخصال الحميدة .

وقبل أن نتعرض لفكرة الالتزام في الدين الاسلامي سنحاول أن نقف على فكرة الالتزام الخلقى المستمد من بعض المذاهب الاجتماعية والفلسفية .

* * *

الالتزام الخلقى :

من الواضح أن هناك في الطبيعة الانسانية من الفطرات والاستعدادات والميول ما يمكن تشكيلها وتطويرها بصورة تقربه من الكمال وتسمو بوجوده الى آفاق التحرر من قيود الشهوات والانقياد وراء الغرائز والسقوط في أعماق الرذيلة والانحراف .

ولكن لخلق تلك النظم الضابطة للسلوك الانساني يجب أن يكون هناك الزام خلقى يحد من الطغيان الغريزى ، وبعبارة أخرى توضع القيود التى لها من الامكانيات ما يمكنهم مقاومة الرغبات الجامحة والأهواء الشاردة، ونتمكن من توجيه السلوك الانساني نحو ما تقتضيه الظروف والأوضاع الدينية والاجتماعية والقوانين الوصفية .

وبالتمعن في تلك القيود نجد أنها جميعها تلتقى نحو التطلع الى السكـال
ومزاولة أعمال الفضيلة والخير ونحو خلق مثل عليا ومفاهيم خالدة تعتبر نبراسا
وهاديا للسلوك البشرى ومنارا يهتدى به الانسان في انطلاقه نحو التطور والارتقاء
بمظاهر حياته الاخلاقية .

ويتمثل الالتزام في عدة نقاط :

اولا الفروض والقيود الاجتماعية

تتمثل تلك المفاهيم في مجموعة القيم والبادئ والمعتقدات والقوانين والآداب
الشائعة في نطاق البيئة الاجتماعية والتي يقصد بها خلق فضائل أخلاقية تكون
بمثابة تعاليم للأجيال المتتالية والتي عن طريقها يتمكن الانسان من الوصول
الى المثل العليا المتكاملة ، وينسق بقواعدها مناهج حياته ومصيره وعلاقاته
العامه .

ومن يشذ عنها . يعتبر خارجا عن الانسجام الجماعى ويشذ عن السكـان
المحيط به حتى يصبح لمن يحيطون به حق استئصاله وابعاده عن حياتهم .

هذا بعكس ما يعود عليه في حالة التفاعل مع البيئة والاستجابة لتقاليدها
وتعاليمها فهذا ما ينحول له حق الاعتلاء والتقدير من قبل افراد جماعته .

ثانيا الالتزام القانونى:

نحو هذا الالتزام أرى ان نقف وقفة عابرة من حيث القانون والأخلاق
ومدى الترابط والتلاقى بين قواعد كلاهما وبالتمعن في مضمون كل منهما

نجد أنهما يلتقيان معا حول القيم والمفاهيم الانسانية — فكل منهما يدعسو الى الامتثال لنواحي معينة في محتوياتها تستهدف الاستقرار والكمال والسعادة .

أما من حيث مصادر كل منهما نجد أنها تشترك في المنبع الطبيعي أو العرف المتفق عليه من حيث حساسية وجودها وباعتبارها ضرورة من ضرورات الحياة المستقرة والهادئة باختلاف مظاهرها، ومبادئ للعدالة وباعت خلق الشعور بالتضامن والتوفيق بين الافراد ويستهدفان مثلاً علياً تستوحى من الطبيعة وتكمن في سر الوجود .

فلو تتبعنا مراحل انبعث فكرة القانون الطبيعي من الفكر اليوناني نجد أنه انبثق على أثر تشابه سلوك الفئات البشرية عامة في المجتمع بالرغم من اختلاف ميولهم ومشاريعهم ومناطق وجودهم وظروف معيشتهم ولكنهم يلتقون حول محور واحد من حيث الصفات السلوكية هذا ما جعلهم يصلون بتفكيرهم على أن هذا التشابه يعود الى وجود مبادئ أساسية مثالية تسود في سائر المجتمعات وتلك المبادئ تتخلص في الضمير والشرف والاستقامة والفضلية الى غيرها من مكارم الأخلاق واشرفها .

وما لبث هؤلاء الفلاسفة أن وقفوا على تشابه وتلاقى نتائج تلك المشاهدات حتى انتهوا بتفكيرهم الى استخلاص عدة ثبوتها وعدم تحولها وتغايرها — ومن ثم ابتدأت ملامح قانون أبدي راسخ لا يستبدل يأمر بالعدل والاحسان والتآخي وينهى عن الشر والانحراف والأنانية .

ومن هنا تسلم فقهاء الرومان هذه الفكرة وانتموا بوصف القانون بأنه الهادي الى سبل العدل والخير والاستقامة واعطاء كل ذي حق حقه .

والقانون الطبيعي كما عبر عنه الاستاذ « محمد علي عرفه » في فلسفة القانون
« انه مجموعة المبادئ التي يهتدى اليها المرء بفطرته وينساق اليها بارشاد عقله
وهدي سليقته »

ولا يتسع المجال هنا لسرد مراحل تطور ونشوء القانون الطبيعي وانما
يكتفي بأن الانسان بطبيعته يميل الى استنباطها والرضوخ لتعاليمها وقواعدها
والاهتداء بضمائمها نحو تنظيم علاقاته من حيث فعل الخير واحترام النظم والابتعاد
عن الأفعال التي ينفر منها بفطرته أيضا لأنها إما أن تكون ضاربة بتلك المبادئ
وإما أنها قد تعود عليه بضرر وإزاء للنفس .

ثم بالانتقال من القوانين الطبيعية الى القوانين الوضعية وهي ما نخضعنا في
مجال بحثنا هذا نجد أنها في صورة قوانين وضعية تفرضها السلطة السياسية في
المجتمع بصورة عقوبات تفرض على كل من يشذ عليها أو ينحرف بسلوكه عنها
من أجل خلق الاستقرار والنظام في الهيئة الاجتماعية الحاوية له وهذا ما يمكن
ان نضيف عليه اسم القوانين الوضعية الاخلاقية .

ثالثا العقيدة الدينية :

وتتمثل في الامتثال للفروض والتعاليم الدينية لما لها من قدرة على الهداية
والتقويم وخلق الالتحام الروحي والمادي بين الفئات الخاضعة لها .

ولا يمكن أن تبلور مظاهر تلك العقيدة في النفوس البشرية وتنعكس
آثار قيمتها وتعاليمها في سلوكها الا اذا كان هناك ايمان بالامور التي لا تدركها
الحواس . كالشئون الالهية والعوالم الروحية والايمان بجميع الأنبياء والمرسلين

والاعتقاد بخلود الروح واليوم الآخر اعتقادا لا تشوبه شائبة من شك - ومن خلال هذا الايمان يجب أن يكون هناك تقربا ذاتيا نحو العمل الصالح في شتى المجالات والتي تنص عليها التعاليم السماوية والرسالات الدينية التي ارسلها الله للناس هاديا وموفقا ومصلحا لهم ولشئونهم سواء أكان هذا في الدنيا أو الآخرة .

وعليه فليس هناك سند أقوى من الرجوع الى النزعة والعقيدة الدينية لدفع الفئات الشعبية نحو الامتثال للتعاليم والقواعد الأخلاقية التي هي جزء لا يتجزأ من التعاليم الدينية التي تعتبر هاديا ونبراسا للانسانية عامة .

وكما أن الامتثال للعبادة والخضوع للايمان لهما في الواقع من المقومات ذات الآثار الفعالة الخالدة من حيث مدى تأثيرها على السلوك ومن حيث كون الانسان مخلوقا به ثغرات من الضعف يحتاج لتكميلها من الرعاية والهداية فنراه ينزع بطبيعته لكي يستمد من قدرة الخالق ما يقوى به نفسه ويكمل به مظاهر ضعفه وقصوره . وهكذا أيضا الحال فنجد هذا الانسان ينزع بفريزته نحو القواعد الأخلاقية يلتمس منها العون ويهتدى بقواعدها على أن التمرد والانحراف أمور تتنافى مع الطبيعة الانسانية المسالمة وتنفر منها النفوس المتكاملة السليمة .

وبالتمعن في تعاليم القرآن نجد أنها تنتهج منهجا موفقا من حيث مبدأ الالتزام الخلقى للفئات البشرية ، فقد جاءت التعاليم في كتاب الله واضحة شفافة يسهل على العقول تداركها واستنباط تعاليمها - وقد جاءت التعاليم الأخلاقية في القرآن بصورة دقيقة متكاملة تستجيب لتطلعات الطبيعة الانسانية بفرائضها

المعايينة . مادلة فى حدود طاقات وامكانيات النفس البشرية ومدي قدرتها فى السيطرة والتحكم فى الدوافع والغرائز والميول المتعددة ثم اكرت للنفس-وس حرية التدبر وحرية الاختيار والتصرف فى نطاق تلك التفاصيل وتبعها لتغاير ظروف الحياة .

وواجب المؤمن حىال هذا أن يتبين معالم طريقه ويندفع الى ما يقربه ويتفق وأوامر الله . وعليه بالتالى أن ينوء عن الأعمال التى تجعله عرضة للانزلاق فى الرذيلة والانحراف .

وهكذا نرى الانسان وقد أصبح ملزما فى سلوكه بملك الفروض الدينية والاجتماعية والسياسية التى تصدر عن خارج ذاته - وقد يكون هذا الالتزام نابعا من عقله وضميره الكامن فى أعماقه بفرض على نفسه أن يتروى فى سلوكه وينخضع لعقله المفكر وحسن تقديره بحيث يزاول أعمال الخير ويتبعد عن كل ما هو فى مضمونه شر .

وهذا الالتزام النابع من الذات الانسانية يمكن ادراكه وتنميته بالممارسة والاختيار والارتقاء بحواس التذوق المعبر عن ملكات عقلية تستهدف مهارة كل المظاهر التى تحيط بالانسانية .

الانسان كائن اجتماعى

ليس ثمة شك أن هناك من يجهل ما فطرت عليه الطبيعة البشرية من حب الألفة والمعاشرة ، كذلك ماجبات عليه النفس من ميل طبيعى وغريزى نحو الاندفاع والاندماج فى الحياة الاجتماعية ، فليس هناك أفسى على النفس البشرية من حياة العزلة والا تفصال عن المجتمع .

وتقوم تلك العلاقة التى تربط الانسان بالجماعة الحاوية له على عدة روابط تشمل فى روابط اللغة الواحدة والعادات المشتركة والقيم التى يستجيب لها الجميع برغبة جماعية هذا الى جانب ارتباطهم بولاء واحد وخضوعهم لحكومة قومية واحدة .

والانسان ككائن نابض بالحياة له بعض المميزات والخواص التى يختص بها دون باقى المخلوقات وان كانت توجد فى بعضها الا أنها تكون فى صور ناقصة غير متكاملة الجوانب والأركان .

فنجدهم الحيوان محكوما بغريزته الفطرية بينما الانسان محكوما بعقله وذكائه وهما يعتبران عاملان أساسيان نحـو ضبط السلوك البشرى وتعديله وتوجيهه .

وقدرة الانسان على النطق واخراج حروف متراصة ذات معان معينة

جعلته قادرا على الانصال بباقي عشيرته بلغة داركة يسهل التفاهم بها في نطاق بيئة بحيث يتمكن الجميع من تناقل الأفكار والمعاني ، وتوارث التراث الفكري من جماعة لآخرى ومن جيل لآخر ما يمكنه من خلوده وبقائه على مر الأجيال وربط الأفكار والمعرفة برباط متصل وثيق .

والإنسان قادر على نقل المعرفة من مجرد الاحساس بها الى الواقع المادى ثم استخدام نتائجها بصورة عملية متطورة حتى يتمكن من السيطرة على الظروف الطبيعية وتسخير مظاهرها من أجل استكمال وجوده واسباب رفاهيته .

والقد كان وجود الإنسان بتلك الملكات ظاهرة طبيعية ولكنها في الواقع تحتاج لظروف وامكانيات معينة لتمكين الإنسان الفرد بالاحتفاظ بها وتطويرها — ومن هنا جاءت حتمية الالتقاء الجماعى لكي يصبح الفرد كائنا اجتماعيا . ففي اللقاء الجماعى وحده يتمكن الإنسان من تنمية الصفات والمظاهر التى تجعل منه انسانا حقيقيا وتؤكد تلك الحقيقة — كما وأن تلك الصفات التى تخلد الكيان الانسانى السامى من تسامح ومحبة واحسان ورحمة وايشار وتضامن ... الخ . لا يمكن بأى حال من الاحوال أن تنجلي وتبدو واضحة راسبة ما بين جدران العزلة والرهبنة وانما لابد من أن تتوافر لها الظروف المهيئة والبيئة المناسبة التى يمكن أن تتداول فيها تلك الصفات الخالدة .

وعليه فالبيئة الاجتماعية هى الأداة التى يكتسب بها الفرد وجوده وعاداته وتصبح له شخصية انسانية خاصة هى انعكاس لبيئته ومجتمعه .

وعليه فالتكوين الاجتماعى يكون بصورة متكاملة اذا ما كانت تلك الجماعات المكونة له ترتبط مع بعضها بعلاقات منتظمة حتى يتمكن من خلق الوحدة الاجتماعية وهذا لن يتأتى الا عن طريق الالمام بالمعرفة الانسانية التى يجب أن تتضمن معرفة الإنسان لنفسه ثم معرفته لبيئته .

الفرد في المجتمع

وإذا ما نظرنا الى الغريزة الاجتماعية نظرة أعم وأشمل نجد أنها لا تقتصر على مجرد ما انطبع في النفس من ميل فطري للاندماج في وسط المجتمع فحسب وإنما تمتد الى أبعاد أعمق في داخل النفس البشرية تتبلور في استعدادات معينة لتلقى تعاليمه والتأثر بتقاليده وأساليبه ومفاهيمه العامة والخاصة . وبالرغم من أنها قد تجد من حرّيته وانطلاقه واستقلاله ولكننا نجد منقاداً نحوها بصورة لا إرادية .

ومن الواضح أن مهمة الفرد لا تنتهي بمجرد انضمامه الى بيئة اجتماعية وإنما تمتد الى آفاق أبعد من هذا وترى الى غرض أسمى بكثير ألا ودو الاندماج الجزئي والكلّي في هذا الالتقاء الكبير مكوناً كلا متكاملًا بحيث يتبادل معه التأثير والأنصال ويستمد من المجتمع مظاهر استكمال وجوده ويمدّه كذلك بمظاهر الاستقرار والكمال ويصبح الكل وحدة متماسكة محكمة النظام .

ومن هنا جاء أثر اعتماد الفرد في تدبير شئون حياته المتباينة على نظام الجماعة في حد ذاتها من حيث التأثير على عقليته وميوله وطبعها بطابع الجماعة السائد بميزاتها ولونها الخاص ، ومن خلال الصلات والعلاقات القائمة بين الفرد والبيئة الاجتماعية التي يعيش بها تنبثق مظاهر المعرفة والتأثر الوجداني وتتبلور معالم الغريزة الاجتماعية التي تنعكس بالتالي على كثير من مظاهر السلوك الإنساني الغريزي الذي يتمثل في استعداد الفرد وميله لحب العشرة والاندماج الكلّي والجزئي مع باقي عشيرته .

وطالما وان الآداب العامة والقيود المنظمة للسلوك الانماني خلال
بيئته الاجتماعية هي وليدة حتمية لهذا الالتقاء لما لها من قدرة وامكانيات للحفاظ
على استقراره واستمراره وتبعاً لكون تلك النظم والقوانين قد استقرت بناء
وعلى رغبة الافراد وتقبلهم للتقاضي للتقيد وكتب بعض حريانهم فهذا ولا شك
قد يبين لنا مدى اصرار الانسان للالتقاء الجماعي ، وخضوع الأفراد لآداب
المجتمع وقيوده التي تفرض عليه لتعبد أقوى المظاهر والاستدلالات للفرصة
الاجتماعية الكامنة في النفوس البشرية ومدى اختصاص بني الانسان بتلك النزعة
المقدسة المتمثلة في قابلية الفرد لاعتناق تعاليم المجتمع وقابليته نحو الاستجابة
لمقائده وعاداته المتوارثة .

ومن هنا يجب الا ننظر للفرد على أنه مجرد كائن منعزل عن المجتمع وانما
كعنصر صغير يتفاعل مع كل كبير ، وباعتبار أن الخلق الاجتماعي لا يمكن أن
يتم أو يتطور الا بتفاعل الفرد مع المجتمع الذي تكون نتيجة تلاقى افراده في
تجمعات تربطهم أهداف لها من الثبات والاستقرار بحيث جعلهم يشعرون
بالتجانس وحتمية الامتزاج الروحي والمادي من أجل تحقيق أهداف مشتركة
يتمثل في اعتقادهم بأن الخير الأعلى ان يتحقق الا بقدر تقرب سلوك كل منهم
الى أعلا درجات الكمال والارتقاء ، وان اختلفت تلك الصورة التي يختص بها
مبدأ الخير الأعلى في حد ذاته من حيث وجوده المادي من مجتمع لآخر ألا أنها
تلتقي جميعها في جوهرها السامي من حيث الأفعال المستازمة لتحقيق الكمال
المثالي المهدف الى خير الانسان ورفاهيته والذي هو بالتالي غاية الوجود
الانساني والغاية العليا المتكاملة لجهوده وطاقاته على مر الأجيال
والسنين .

وعلى ضوء هذه الفكرة المبسطة عن حقيقة الانسان الاجتماعية تتحدد

معالم العلاقات العامة والنظم التي تربط ما بين أبناء المجتمع الواحد وتحدد معالم سلوك كل منهم حيال بيئته والواجبات الانسانية العامة التي يتمكن يا شعاعاتها من تحقيق حياة ممتعة متكاملة لكل انسان وشعور حقيقى بمزايا الانسانية في اعدل صورها واكملها وكذلك يتمكن من تحقيق كافة القيم الانسانية والمفاهيم الاجتماعية والروحية في نطاق المجتمع .

ومما لا جدل فيه بانه لسكى يتم خلق ذلك الاستقرار والتكامل في نطاق البيئة الاجتماعية يتجتم لتلك النظم والقوانين الهادفة لتنظيم العلاقات الداخلية والتوفيق بينها واجبار الفئات على احترامها والرضوخ لها أن تكون لديها من المرونة ما تمكنها من الاستجابة للغرائز الانسانية بتباين صورها وتغايرها من فرد لآخر ومن بيئة لأخرى .

فإذا ما كانت تحوى في مضمونها على ما يحقق المتطلبات الأساسية للانسانية فلا شك أنها ستقترن بالدوام والاستقرار والفاعلية ويضفى عليها انماط من الوقار والثبات ما يمكنها من تحقيق غايتها السامية وهدفها الابدى .

والكن يحق لنا أن نقف وقفة قصصيرة لتساءل . ماذا بعد أن تدارك الانسان مكوناته الفطرية وميوله الغريزية واستعداداته للاستجابة الى النظم التي توفى بين مطالبه وبين الوعاء البشرى الحاوى له ، وكذلك عن مدى تلاجه بالقيم الاخلاقية الانسانية التي تلاقت جميعها للسمو بالانسان ذاته باعتباره هدف الحياة وكيان الوجود وغايته .

وقد ظل الانسان في صراع دائم كلما شعر بالاستقرار في الحياة . فاما تعثر وتفرض الحياة نفسها عليه واما يسيرها على أثر دوافع وميول

تابعة من ذاته . . .

وهكذا كان صراعه دائما مستمرا و كفاحه لا ينتهى منذ وجوده الاول الى يومنا هذا .

ومن خلال بحثنا هذا سنتناول بصفة افتراضية الصراع الانسانى على مرحلتين .

أولا : الصراع الانسانى المادى

ثانيا : الصراع الانسانى الروحى

الصراع الانساني المادى

فلا انسان منذ وجوده فى صراع دائب ومحاولات مستمرة من أجل تطوير وسائل معيشته المادية وخلق سبل الرفاهية التى تعبر فى حد ذاتها عن معان نسبية تختلف من عصر الى عصر وتفاوت من مجتمع لآخر . وكانت استجابات الانسان فى الوقت نفسه للحواجز المماثلة لبيئته الذاتية متماثلة طبقا للحاجات المادية الطارئة . ولا ريب انه عبر تلك الصراعات كان الانسان يتهدى للظواهر الطبيعية والأحداث العابرة محاولا ان يستشف خلالها هذا الوجود الشبه مستقر والذي كان ينطلق نحوه اما بصورة ارادية أو لا شعورية .

وتاريخ البشرية فيما قبل التاريخ يعبر عن المرحلة الاولى للحياة الانسانية مرحلة تتصف بالبداية اذ كان الانسان لا يزال يعيش أينما وجد سواء فى الغابات الحارة او الوديان معتصما بالأشجار خشية الضواري ، واستجابة لحاجته ومتطلباته الاساسية متخذاً من فاكهتها طعاماً له

واننا لو تتبعنا المخلفات والآثار التى تركتها البشرية على مر السنين والأجيال نجد أنها تمثل صفحات مدونة تحوى سطورها على سجلا معبرا عن تاريخ هذا الصراع ومراحل تطوره .

فنجده أن هناك مخلفات أثرية تركها الانسان الاول « الانسان الناقص »

منذ آلاف السنين في أوروبا كالأحجار الصوانية التي شقت لتصلح الطرق أو الحرب ، كما وجدت في جهات أخرى بعض الأدوات التي كانت تستخدم خلال تلك العصور في الأعمال اليومية ومستلزمات الحياة الأساسية .

وكما ابتعدنا عن تلك الميول كالمسافر في البحر إلى الشاطئ خلفها الانسان على
أنماط أكثر تقدما وأدل مهارة من حيث كونها أدوات تمتاز بتنوعها ودقتها
كالمنقب والمقشطة والسكين والرمح والسهم والبلطة (*) جميع هذه الأدوات
من صنع الإنسان لمصر في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم
منها لكثير من الآثار التي تسمى في عصرها الحديث بالآثار من العصر الحجري القديم
ألف سنة وقد تدل على أن الإنسان في تلك الأيام قد كان يميل إلى التوسع في البحث على الأرض
ويجعل لها من كل وجه من الوجوه ما كان له من كل وجه من الوجوه ما كان له من كل وجه من الوجوه ما كان له
وتلك من الفسيفساء التي كانت في تلك الأيام من كل وجه من الوجوه ما كان له من كل وجه من الوجوه ما كان له
وأنكى من حيث الادراك والعقل والاعرف بالحياة وما قد له على راسه من الفسيفساء
والتعاون وميله نحو الرفاهية — فتلك المخلفات تدل على أن انسان روديسيا
كان يعرف العقد والقلاويع ويحترف في الصنعة وكان سلاحه في ذلك هو الحجر
المقذوف في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم
في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم
وبالانتقال الى حفريات العصر الباليوليتيك في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم
خمس عشرة ألف سنة نجد أنها تدل على أن الانسان قد أدرك الكتابة والنقوش
على الصخور والعظام والبرقعة في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم
واحساساته في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم في ريفها القديم

(*) نداء الحياة والحضارات الكبرى (عبد الله حسين)

بسم الله الرحمن الرحيم

وما لبث أن ابتداء الانسان في هجرة منطقة وجوده وابتداء يحكم بما يجاوره فكان احتكاكه بالبحر والأنهار أدى الى معرفة السمك ثم توصل الى اشعال النار بطريقة بدائية ليشوي عليها السمك واللحوم حتى توصل الى استخدام التراب الساخن واتخاذ الطين غطاء للاخشاب والأوعية وقاية لها من النار ثم توصل بعد ذلك لاستخدام الطين في البناء بعد وضعه في النار وهكذا حتى جاء العصر النيوليتيكي (عصر الحجر الجديد) حينما أدرك الانسان الزراعة واستنبت الأراضى واستئناس الحيوانات وابتدأت الجوع البشرية تتلاقى تبعاً للموارد الطبيعية ومصادرها وخرج الانسان من مجتمه البدائي والذي كان يستعمل فيه الادوات اللازمة لمعيشته من الحجر على أساس أنها مواد يبرز وجودها فوق سطح الأرض وتطورت تلك الادوات من مجرد صنعها بالحك وكونها خشنة غير مصقولة وضيخمة لا فن فيها والسلاح مجرد شحفة من الحجر تستدق من الطرف حتى أصبحت تصنع بالضغط عوضاً على الحك وتطورت تلك الادوات البدائية الى القوس وآلات تثقيب العيـدان والرماح والحربة والابرة العاجية (١) وكانت بصورة أكثر تقدماً دقيقة في صنعها على نقيض صناعة الادوات في المدة الاولى من عصر الحجر الباليوليتيكي القديم .

وهكذا تعاقبت العصور ولا يتسع مجال بحثنا هذا للاسترسال في مظاهر التطور الذي لاحق هذا التعاقب والجهود البشرية التي بذلت خلاله ولكننا نستدل على أنه عند ظهور الانسان الاول وهو في صراع من أجل تطوير امكانياته ووسائل معيشته المادية والتي تعبر في مضمونها عن مدى اصرار الانسانية نحو التطوير والارتقاء والتسامي بوجودها من ما هو أدنى الى آفاق

(١) مقالات للدكتور سليمان حزين

تساوها وتميز عنها بالرقى والتقدم . وان كان هذا يعبر عن شيء فما هو إلا بلورة
وتأصيل للنفس البشرية وغريزتها في الارتقاء واصرارها على قهر الصعاب وتذليل
العقبات التي تعترض طريقها وتعرقل تقدمها وانطلاقها نحو حياة أفضل متكاملة
وفي الواقع أن تطور النضال الانساني منذ وجوده الأول حتى يومنا هذا
لا يمكن أن تختص بنتائجها فئة معينة وانما هي في الواقع نتاج لجهود مشتركة
ساهمت فيها البشرية على مر السنين والأجيال على الرغم من تفرقها فوق هذا
الكوكب ويتباين حضاراتها وثقافتها ومدنيتها .

ومن هنا نستدل على أن الانسان منذ وجوده وهو في صراع ومحاولات
جادة من أجل تحقيق واقعه المادى وتسخيره من أجل اشباع وتحقيق متطلبات
وجوده المادية .

الصراع الانساني الروحي

ظل هكذا حال الانسانية من حيث بحثها وراء تطوير واقعها المادي ، وجعل المادة وانعكاساتها الملموسة مجال للبحث والتفكير - الى أن ابتدأ في البحث وراء حقيقة من هو ؟ ولماذا وجد ؟؟ ولماذا يشقى وما هي الحقيقة التي تعبر عن وجوده و مطالبه ؟ وما هي غاية وجوده والصور التي تتكامل بها مظاهره وتبعث في نفسه بالاستقرار والهدوء والسعادة . ؟

تلك الاسئلة التي اتجه نحوها الفكر الانساني بالبحث والتمحيص من أجل إيجاد واستنباط حلول لها لتبعث الاستقرار في النفوس والراحة في الصدور ، فنجد انها قد خلقت تشبثا في الافكار واضطرابات في النفوس نظرا لوقوف الانسان أمامها وقفة عاجزة محدودة لا يجد أمامه إلا بعض التفسيرات الفطرية المحدودة وان كانت الثغرات الموجودة في النفس البشرية القلقة المتلهفة للمعرفة واليقين .

ومن هنا أبتدأ الفكر الانساني في محاولات جادة مستمرة لاستنباط مظاهر وجوده وتعليل هذا الترابط ما بين ذاته المادية المعبرة عن الانعكاسات الخارجية للمادة والطبيعة وكيانه الروحي المعبر عن المطلق والروح واللامحدود . واعتمد الانسان في هذا المنهج على عقله واحساساته ووجدانه ولكنه لا يجد لها الطريق الحقيقي أو الاستدلالات المنطقية وانما يدرك في أعماقه أنه يعيش في عالم مجهول

تترامى أطرافه الى ما لا نهاية ، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يتنكر أمام تلك الحقيقة أو يقف حيالها بالسلبية والجود وانما استلزم عليه واقعها ان يجد لها من التفسيرات والمدلولات المتكاملة المعبرة بوضوح وعمق وصراحة .

ومن ثم فطالما أن تلك النتائج لا يتوصل اليها الانسان الا عن طريق التعقل والمعرفة والاحتكاك فماذا يفعل هذا العقل في عالم لا نهائى مضطرب تموج منه التفسيرات والتعليقات والبراهين وتتضارب فيما بينها ويستند كل منها في منهجه على قواعد ونظم معينة تخضع كل منها لظروف معينة وتفاوت من مجتمع لآخر وعن بيئة لاخرى حتى وانها تتفاوت وتضطرب فيما بينها خلال المجتمع الواحد فيحسب .

ومن هنا تذبثق حتمية خلق وتشكيل قيم ومفاهيم عامة لها من المرونة ما يجعلها قادرة على تكييف نفسها طبقا لاحتياجات البشر وطبائعهم المتباينة وأن تتضمن في محتواها اجابات منطقية لتلك التساؤلات التي تسببت في اضطراب النفس البشرية وتمكن الانسان الفرد من التعبير عن ذاته وتوصله الى الآفاق والحدود التي بموجبها يتمكن من تحديد مكانه في الارض ، كذلك لها القدرة على ازالة كافة العقبات التي تعترض طريق التقدم الروحي للبشرية عامة .

كما وانه لكي تكون تلك القيم بها تلك القدرات باعتبارها معايير للمنهج الفكري للانسانية والحكم عليه من حيث مدى تحقيقه للغاية المنشودة وبأساليب موفقة سليمة بحيث أن تكون معبرة في نفس الوقت عن ذلك الجانب الوجداني الخالد ذي الخصائص المعينة والمطالب الذاتية وتتفق أساليبها وطبيعة هذا الوجدان وتؤدي بدورها نحو خلق شعور بالتضامن والالتقاء حول المصالح المشتركة بين جميع الناس ويمكن أن نقف وقفة قصيرة لتساءل هل توافرت تلك القيم والمفاهيم

من يقع اللوم ومن المتسبب في وجودهم هذا . فهل هو القدر أم هو الانسان ؟

الحقيقة أن الصراع الروحي بين الانسانية عامة هو الذي يوجد مثل تلك الحالات فكل انسان يضع لنفسه القيم والمفاهيم الخاصة متى تلائم ظروفه وتعبّر عن متطلباته وتمكنه من الوصول اليها بما يتوفر لديه من امكانيات وقدرات ، وبالتالي فكل يحاول أن يعبر عن نفسه ويحقق متطلباته ويؤمن نفسه ضد الحرمان والشقاء وبوفر له مستقبلا مشرقا يحقق فيه غاية سعيه له ولاسرته من بعده .

ومن هنا ينشأ الصراع وتتصادم الرغبات وتتشتت القيم والمفاهيم .

وقد جاءت الأديان السماوية لتكون للبشرية هادية وضياء لها يسترشد بها الانسان في وضع تلك القيم والمفاهيم .

كما وأن الأديان السماوية لا تكتفي بالتعرض لمضمون الوجود الانساني بل انطلقت في وضع مقاييس للمطالب الانسانية من حيث حتمية توافر الرخاء المادي وشمول الخير الروحي وتستهدف تحقيق السعادة للجميع ، وتؤمن بأن النظم والعلاقات ينبغي أن تحدّد على أساس مبدأ التزام الحق وتجنب الارهاب والاستغلال كما وانها تؤمن ايمانا عميقا وتصرف في الدعوة بان التآلف والتآخي بين الفئات الشعبية له القدرة على البقاء وتقارب الناس الى بعضهم وتمكنهم من خلق مجتمع تسوده الحرية والمساواة والعدل .

كما واننا لا نستطيع أن نذكر تلك الآثار الخالدة التي عادت على الانسانية من انبثاق الفلسفات القديمة المتعددة ومدى تأثيرها على العقول وتهيئة الاحساسات

واثارة العواطف لتلقى الرسائل السماوية والتفاعل معها والتأثر بتعاليمها الخالدة المتكاملة ، وبالرغم من تلك المفاهيم والمطالب الأساسية التي توصل اليها الإنسان من خلال الفكر والمنطق الفلسفي وأكادتها كافة الأديان والتعاليم السماوية نرى أن الإنسان له من الدوافع والبواعث التي تجعله يثور ويضطرب ولا يستطيع أن يحقق مطالبه وحاجاته التي يشعر بحساسيتها من حيث مساهمتها في شعوره بإنسانيته ووجوده وطالما أن المجتمع يتكون من فئات متباينة ذات مصالح متضاربة وحاجات متنافرة تجعل كل فرد مستقلاً بآرائه وسلوكه في بيئته الاجتماعية فإن هذا يستتبع اضطراب نفسي وعدم استقرار لأنه سوف لا تكون هناك حدود أو أبعاد للمطالب الإنسانية بل ستصبح نسبية غير مستقرة ويصبح مبدأ تحقيق المطالب غير مناسب لحاجة الفرد ومن هنا تصبح غاية الحياة الإنسانية نسبية لا حدود لها وكلما ارتقى سلم المدينة استحال ارضاء وتحقيق مطالب أي كائن اجتماعي دون أن يكون هناك تقدير واعتبار لمطالب الذين يحيطون به.

ما وراء الصرع الانساني

الانسان منذ وجوده وهو في صراع دائم تارة مع الطبيعة وتارات أخرى مع نفسه ومن يجاوره فلماذا يثور الانسان وما هي البواعث التي تشير من انفعالاته وتجعله يثور وينطلق هائجا لا يدري له غاية أو حدود يتصادم بأي شيء يعترض انطلاقه أو يقف عثرة في طريقه .

فمنذ بدء الخليقة والانسان هائم يعيش في فراغ كبير وسؤال يضطرب في أعماقه ماهي غاية وجوده والى أين يسير ؟؟ هذا السؤال جعله يتخبط في سلوكه ويقراجع في مطالبه ويعلو بتفكيره الى آفاق لا نهائية فكما اعتقد انه قد وصل الى حدودها ظهرت له آفاق بعيدة تجذبه اليها وتجعله ينطلق نحوها حتى ولو كان يسلك سلوكا يتعارض بالحدود التي توضع له من خلال بيئة الاجتماعية .

هكذا يسير الإنسان تارة ضد الطبيعة وتارة ضد نفسه ، ومما لا شك انه كلما تطور التفكير الانساني وازدادت معارفه وادراكه لنفسه كلما ازدادت ثورته واتسع بالتالى الفراغ الذي يحيط به .

ثم نعود لسؤالنا . لماذا يثور الانسان ؟ فهل يثور لمجرد اشباع دوافع ذاتية تجبره على الثورة والتمرد أم أنه استعداد فطري في الانسان للفوضى أم أنه يثور لمجرد الحصول على حاجة معينة ثم يعود للاستقرار والهدوء أم أن تلك الثورة مجرد تعبير عن طاقة فائضة في نفسه لا يستطيع إخراجها الا بتلك الوسيلة . وأخيرا هل يثور الانسان وهو لا يعين ولا يدرك أنه يثور ؟ .

تلك التساءلات تدفعنا لكي نلقي نظرة على حقيقة نفس الإنسان وأبعاد فكره وعواطفه حتى تتمكن من الوقوف على أصول ثورته وانفعالاته وبواعثها الحقيقية .

ولا ريب أن مشكلة الإنسان هي الوسيلة التي تمكنه من ادراك نفسه طالما أنه لا يستطيع أن يدرك جوهره وحقيقته .

وبالتمعن في حقيقة الإنسان نجد أنه يتكون من الناحية البيولوجية من خلايا وأنسجة وأعصاب وهذا التكوين العضوي يحتاج لاستمراره في الحياة والنمو الى متطلبات أساسية إذا ما حرم منها أدى ذلك الى اضمحلاله وفناءه . فالجسم من حيث تكوينه من مادة وروح يحتاج الى متطلبات خاصة من غذاء وهواء ومأوى ومن حيث الجانب الروحي أو النفسى فله أيضا متطلبات خاصة ودوافع داخلية وغرائز واحساسات تملئ على هذا الكائن الحي اشباعها من حيث الشعور بالأطمئنان وحب البقاء والسيطرة والتملك والأنانية ... الخ .

ومن ثم فالإنسان يسعى جاهدا شعوريا أولا إراديا نحو تحقيق هذا الوجود المادى والروحي على السواء .

ومن أجل تحقيق هذا الوجود يسلك الإنسان سلوكا يؤمن في أعماقه بأنه سيؤدى به الى تحقيق تلك المطالب والأحاسيس ويبدأ في وضع قيم ومفاهيم خاصة تعبر في مضمونها عن نفسه ومصالحه .

ابتدأت بفكرة ودوافع داخلية وبواعث خارجية جالت في أعماقه ثم تشكلت وأخذت طابعها وأركانها وصفقاتها .

ومن ثم فإن تلك المفاهيم والقيم والشعارات التي يشكلها لنفسه ستعتمد

بصفة ابتدائية على مدى قدرته على الادراك والتفهم والتقدير .

وطالما أن الصفات الانسانية وخصائص السلوك البشرية تتنوع خلال المجتمع الواحد من فرد الى فرد ومن مستوى الى آخرى فإن الآراء تتضارب والمصالح تتصادم وتشتت سلوك كل فرد أمام الآخر ويحدث الصراع الذي لا منبر من وجوده إزاء تلك الأوضاع المضطربة .

ومن هنا ولكي تتمكن من ملاحظة هذا الصراع والقضاء على هذا الاضطراب يجب أن توحد الغايات وتوفق ما بين الفئات وذلك عن طريق قيم ومفاهيم تحد من الطغيان وأن تكون ضابطة وحابكة للسلوك الفردي خلال البيئة الاجتماعية .

وهنا نتساءل كيف تتمكن تلك القيم والمفاهيم من أن تخلق الاستقرار والهدوء في المجتمع الأنساني؟؟

فما لا شك فيه أن الإنسان دائماً وأبدا يسير وراء الحلول التي تتضمن في محتواها استجابات موفقة منطقية كاملة تعبر عن حقيقة الواقع الانساني ومتطلباته كما وأن القيم والمفاهيم والنظم السياسية لم تأت الى الواقع المادي بمحض الصدفة أو بطريقة لا إرادية ، وإنما جاءت استجابة لحقيقة الذات الانسانية وتلهمها الى حياة الاستقرار والسعادة كما وانها جاءت كرد فعل لاندفاع الفئات الانسانية لحياة الفوضى والهمجية واللاإنسانية .

وهكذا فالإنسان بطبيعته ميسال للاستقرار والهدوء . وعليه لكي تجعل ذلك الانسان يتقاد الى تلك الشعارات والقيم والمبادئ التي ترفع لتنظيم حياته وتوفق ما بين علاقاته العامة يجب أن تكون تلك النظريات والقيم ذات نظرة إيجابية للواقع الانساني من حيث ارتباطها بالواقع المادي والروحي على السواء وأن تتمثل فيها الفضائل والقيم الأخلاقية المتوارثة على مر الأجيال كما يجب

أن لا تحمل في محتواها متناقضات لأوضاع معينة وإنما يجب أن تكون قائمة على التوفيق ما بين النظريات الروحية والأخلاقية التي تعبر في مكنونها عن حقيقة النفس البشرية فإذا ما كانت تلك المفاهيم تعبر عن الواقع المادي فيحسب فإنها دون شك تعلو بالمادة على الإنسان وتمجدها عن الكيان الإنساني عامة . وهذا ما يتنافى والقواعد الإلهية والطبيعية التي فطر عليها الإنسان منذ وجوده .

أما إذا كانت المفاهيم تعبر عن الروح فيحسب فإنها لا تكون إلا شعارات خيالية تنأى بالإنسان عن واقعه المادي المحسوس وتسلو به إلى آفاق الخيال والأحلام ولا تستجيب في مضمونها لواقع التجربة والوجود .

وعليه فيجب أن تكون المفاهيم والفلسفات والقيم التي تنظم العلاقات الإنسانية لتستجيب في واقعها إلى الكيان المادي والروحي للإنسان وأن تكون قادرة على تحقيق جوهر الوجود الإنساني وخلق الاستقرار والهدوء والسلام في المجتمع كما وانها يجب أن تمجد الإنسان في الأرض وتنظر إليه نظرة اجلال وتقدير وأن تكون قائمة على أسس من التقارب والمشاركة المادية والوجدانية للفئات الشعبية على السواء حتى يتمكن كل فرد من أن يشمر بأن تلك القيم والمفاهيم هي في نفس الوقت ما نصبو إليها نفسه الإنسانية وفي نفس الوقت تعبر عن حقيقة احساساته ومشاعره وعواطفه وتستجيب الى كافة متطلباته واحتياجاته التي التي تمكنه من الشعور بأدميته وإنسانيته في الأرض .

وبهذا يتمكن من القضاء على الصراع الإنساني ويصبح بدلا عنه التوافق والنضام والتلاقى بين الفئات الإنسانية عامة .

وعن طريق الاسترسال في تتبع مراحل تطور الملكيات منذ بدء الخليقة حتى ابتداء ظهور الفلسفات والأفكار التي جعلته اظاھر الملكية أو ضياع خاصية ومسميات متباينة يمكننا أن نستدل على أعرق الدوافع والمؤثرات التي تتسبب في خلق الصراع ما بين بني الإنسان والأرض .

تطور الملكيات الفردية

منذ أن وجدت المجتمعات البشرية ونظام الملكية الشائع يسود وجودها وكانت وسائل الانتاج المختلفة ملكا للجميع على السواء تقسم منتجاتها فيما بينهم بأقساط متساوية حتى تأصبات عادة تقسيم كل شيء إلى أجزاء متساوية لدى الشعوب البدائية وأصبحت نهجا أصيلا متعمقا في نفوسهم وتمييزا خاصا لسلوكهم نظرا لما كانت عليه منتجات العمل اليومي لانكاد تكفي لاشباع حاجات الأفراد وكانت عمليات اقتناص الحيوانات والزراعة تتم بأسلوب جماعي ونتاج هذه العمليات يقسم على كل من شارك فيه .

وكانت تلك الجماعات تجوب الأقفار وتركب الصعاب سعيا وراء الرزق تارة بالصيد أو بمجرد الاقتناع بما تقدمه اليهم الطبيعة من ثمار ونباتات . . الخ ومالبت أن ازداد تعداد تلك العشائر وتضخم إلى الحد الذي لا يسمح بالاستمرار والتجول والاستناد إلى ثمار حياة الترحال والانتقال من مكان لآخر ودفعتهم مزايا العمل الجماعي إلى الاستمرار في منطقة تتوافر فيها الحاجات الأساسية لاستمرار وجودهم كرقعة من الأرض تصلح للزراعة البدائية وتضاربها تصلح للسكنى ترعى فيها حيواناتهم التي تعتبر لحومها غذاء لهم وفراءها لباسا بقيهم التقاليد الطبيعية . وبهذا نشأت أولى مظاهر الاستمرار التي ترتبت عليها حالة التقسيم التلقائي للأرض تقوم عليها أنواع الزراعات البدائية التي يحتاجون لها

وتستغل في تربية ماشيتهم وبهذا ظهر شبه انتظام لاقتصاد بدائي وأخذ عدد السكان في الازدياد .

وكانت تلك الأرض تعتبر ملكا عاما لأفراد القبيلة على السواء لانتخص بها فرد أو أفراد وإنما ماعليها من ثمار وحيوانات هو من أجل بقاء الجميع على السواء .

وكان العمل في هذه المجتمعات يقوم على مبدأ التعاون البسيط المستجيب لمتطلبات تلك الجماعات وسارت تلك الحياة البدائية على هذا المنوال حتى تطورت مظاهرها وتعمدت مطالبها وتطورت أدوات الانتاج وكل هذا أدى بدوره إلى تقسيم العمل وتحديد الاختصاصات في مجال الالتقاء الجماعي الواحد . فهناك فئة تختص بأعمال القنص والصيد وأخرى تخصصت في الأعمال الزراعية حتى اكتسبت بعض المهارات في هذا المجال بناء على المتابعة والمشاهدات المتكررة وفئات أخرى قصرت نشاطها على تربية المواشي والحيوانات وهذا كله كان له عظيم الأثر في رفع مستوى الانتاج العام .

وبجانب تلك الحرف البدائية الأساسية من زراعة وصيد وتربية المواشي أدى اكتشاف المعادن إلى ظهور حرف أخرى اجتذبت عددا من الأفراد تخصصوا في هذا المجال واعتمدوا في معيشتهم على نتاج الفئات الأخرى في مقابل تبادل المواد الانتاجية .

وظلت تلك الحياة تسير على هذا المنوال حتى ظهرت حاجة تلك الجموع إلى من ينظم تلك الحياة ويوفق بين صراع الرغبات التي تؤدي غالبا إلى نشوء المنازعات والاضطرابات وهكذا انبثق للوجود ظاهرة السلطة المتمثلة في هيئة

فردية أو جماعية من أجل خلق الاستقرار والنظام في تلك الحياة .

ولو تتبعنا مراحل تلك السلطة المنظمة لوجدنا أنها قد ابتدأت منذ أن كانت الحياة بالنسبة للأفراد مجرد الانتقال من مكان لآخر سعياً وراء الرزق فلا شك أنه في تلك المرحلة كانت السلطة في يد من تتوفر فيه بعض الصفات التي تؤهله لقيادة تلك الجموع كالقوة والاستعداد البدني وسرعة الحركة وحساسية السمع وحسن تقدير الموقف مما يمكنه من التصدي للحيوانات الضخمة المفترسة التي كانت تشاركه في الترحال بحثاً عن الطعام أيضاً وبهذا تمكن الفرد من جذب الفئات ورائه وجعلها تشهر بحاجتها لوجوده لقيادتها وتحقيق رغباتها ثم ما أن تداركت تلك الجموع حياة الاستقرار في مكان ما تنوافر فيه المصادر الغذائية وتلاءم ظروفه المعيشية معهم حتى تبدأت المعايير اللازمة لإعتلاء رئيس للجماعة يتسلم زمام الأمور نحو قيادتها وأصبح أكبرهم سناً والذي تكون لديه من التجارب والخبرات في شئون الحياة ما يوفر عليهم مشقة التجربة بصعابها ويقدم لهم خلاصة فكره ومشورته . فكان هذا الرئيس يعيش مع القبيلة ينظم أمور أفرادها ويفضي منازعاتهم أثناء خروج أبنائها وتفرقهم كل في مجال عمله واختصاصه وهذا الرئيس ما عليه إلا تنظيم عماليات توزيع إنتاج جهودهم فيما بينهم .

واستمرت تلك الحال من حيث اختصاصات السلطة المنظمة ، وأخذت مظاهر تلك الحياة تتطور ، والعقل البشري في نمو مضطرد وتساهت الأفكار وابتدأ البحث فيما وراء الطبيعة وابتدأت الأفكار المتباينة تسيطر على العقول العامة كعودة الروح بعد موت الجسد والحياة الثانية وما استتبعنا من أعمال السحر والشعوذة وتنميق الكلمات الغامضة التي كانت تسيطر على عقول العامة السذج وتستأثر بقلوبهم ووجداناتهم وتسخرهم وفق إرادة هؤلاء الزعماء الروحانيين .

ومن هنا تباينت المعايير التي على أساسها يتم انتخاب رئيس الجماعة تبعاً للمستوى الفكري والحضاري للأفراد ولكن الأمر الثابت أن هذا الرئيس كانت عليه مسئولية إدارة أعمال الجماعة وله الكلمة الأولى والأخيرة في حق الانحياز بالخارج وتبادل فائض الحاصلات والمنتجات وقطعان الماشية في مقابل الأشياء التي لا يتوافر وجودها في نطاق معيشتهم وامكانياتهم .

ونتيجة لتطور مظاهر الحياة وأدوات الإنتاج وتقدم الفكر البشري أدى هذا إلى اتساع المبادلات التي كانت تخضع لهؤلاء الرؤساء فازدادت تبعاً لهذا مكانتهم وسيطرتهم واعتبروا أن لهم حق قيادة الجماعة وبذلك أخذت ثرواتهم ومصادرهما تتركز في أيديهم وتخضع لسلطانهم وتعتبر أرثاً يتداول في نطاق أسرة الرئيس جيلاً بعد جيل .

ولقد أدى استقرار الجماعات الأولى في منطقة معينة وتركيز نشاطها في حدودها إلى انبثاق وظهور فئة أخرى تنازع رؤساء الجماعات في سلطانتها ألا وهي فئة القادة العسكريين فلا شك أنه من الأمور التي تتبع ازدياد السكان وتضخمهم وقله الموارد الطبيعية التي تكفي حاجتهم وتطلع هؤلاء الأفراد للمناطق التي يحيط بهم وتتوافر فيها الموارد الطبيعية والامكانيات المادية بكونهم في حاجة إليها لاستكمال مظاهر وجودهم مما أدى إلى ابتداء مراحل الحروب والغزوات وهذا مما دعم مراكز قادة الجيش العسكريين الذين يبرزون نصراً بعد آخر مما جعلهم في مكانة تنافس رؤساء الجماعات في الاستئثار بمقدرات الأفراد وكذلك في مدى ولاء الشعوب لهم والخضوع لأوامرهم .

وهكذا بدأ ظهور الاستعباد والاستغلال حتى شمل كافة المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فكلما زادت معدلات نتاج المواد الانتاجية

وزيادة الرقعة الزراعية كلما زاد معدل الاحتياجات في الأيدي العاملة ومن تبدل مفهوم الحروب فأصبحت تستهدف من بين مفاهيمها الاستيلاء على الأيدي العاملة وأسرى الحرب الذين يستخرون في أعمال الزراعة واتسعت النجوة بين طبقة الملاك والطبقة العاملة والعبيد وتنكر الرؤساء واتباعهم للفئات العاملة الى كانت في يوم ما يتساوى معهم في امتلاك تلك الأراضي ومصادر الثروات وتدرجياً بدأت علاقات الانتاج تتبدل من علاقات متساوية لها حقوقها وواجباتها وفقاً لحاجة المجموعة الى مجرد علاقات بين سيد وخادم ، مالك ومأجور . وأصبح كل مستغل خلال هذا التحليل الاجتماعي والتحول من الملكية المشاعة إلى الملكيات الخاصة يفسر المفاهيم والعبارات لخلق قدسية لهذه الملكيات ابتدعها من أجل التأثير على خيال تلك الشعوب وجعلها في سكون واستسلام ورضوخ وفقاً لارادته ولنا أن نستعيد معا بعض القوانين واللوائح التي كان على منوالها تنظيم العلاقات بين الاسياد والعبيد .

فقد نص القانون الروماني المعروف بقانون الألواح الاثني عشر (*) على أن من يقطع أو يحمص خفية بالليل حاصلات يستعمل المحراث في زراعتها يعاقب إن كان بالغا بالاعدام أما إذا لم يكن بالغا فيحكم عليه بأن يضرب بعصا عددا من الضربات يقضى بها القاضي . كما يحكم عليه بضعف ما يصلح الضرر وإن كان السارق عبداً فيجلده المهنى عليه ثم يعدمه بقذفه من أعلى الجبل .

وفي قانون « بورجوند » كان يحكم على الزوجة والابناء ممن يزيد عمرهم عن اربعة عشر عاماً بالعبودية إن لم يلبثوا فوراً عن الزوج أو الأب المتهم بسرقة « خيل أو بقر » .

(*) تطوير الملكية الفردية بقل الاستاذ احمد محمد غنيم.

أما قانون حمورابي الذي يرجع الى القرن الثامن عشر قبل تاريخنا فإنه يحمي الملكية وحقوق الأغنياء والفقراء وملاك العبيد والأراخى . فكانت تحمي على الفلاح الذي لم يدفع دينه الى دائنه أو الذي لم يدفع ايجار أرضه الى مالك العقارى أن يقدم زوجته أو ابنه أو ابنته للدائن أو المالك كعبيد تابعين له حتى يقوم بسداد ما عليه من دين .

وقانون « مانوفى الهند القديمة » وهو مجموعة من الأوامر الاجتماعية والدينية التى تقس الملكية فكان يعاقب بالاعدام كل من يخفى فى منزله عبدا هاربا .

من خلال تلك القوانين يمكننا الوقوف على أبعاد الحياة الحقيقية التى كانت تفصل بين طبقة الملاك والفلاحين والعبيد وآثار الذل والسخرة التى كانت تلحق بهؤلاء الضعفاء المستخرين فكانت الأسس الإنتاجية تقوم على علاقة شاذة لا تمت بصفة إلى الإنسانية أو القيم الأخلاقية العليا وإنما كانت هناك ملكية السيد لوسائل الإنتاج والنفوس البشرية التى تعمل بها ولا تقتصر تلك العلاقة على مجرد استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وإنما تعطيه الحق فى شرائه أو بيعه كسلعة مادية تخول له حق التصرف به حقا مطلقا مستبدا .

ولا شك أن كل نظام يقوم على المتناقضات والأوضاع الشاذة يحمل فى أعماقه أيضا بوادر فئائه والشرارة التى تؤدي الى اشتعال أركانه واندثار مظاهره وانقراض وجوده .

وهذا هو الحال فى النظام العبودى . أوضاع شاذة لا تمت إلى الإنسانية بصلة أو قرابة تستنكر فى وجودها متطلبات البشرية وحقوقها الطبيعية فابتداء

النظام الإقتصادي الزراعى والتجارى الذى كان يستند على تدفق أفواج العبيد
تعرض طريقه عشرات تتمثل فى الانتفاضات الثورية ومطالبة هؤلاء البشر
بحقوقهم فى الحياة والقضاء على ملاك العبيد مما دعا بعض الملاك فى اطلاق سراح
هؤلاء العبيد وأعطوهم بعض الحقوق فى امتلاك قطع صغيرة من الأرض
يستثمرون نتاجها بمجهودهم ووفقا لإرادتهم ولكن لم يترك السادة العناق لهم
ولم يمنحوهم الحرية المطلقة وإنما كبلوهم بقيود أخرى والتزامات باهظة
بموجبها يقدم هؤلاء الفلاحين مبلغا من المال أو جزء من المحصول وانمائهم
بالولاء والطاعة لصاحب الأرض والمالك الأصلي .

نظام الاقطاع

كان على أثر قيام السيد صاحب السلطة بتوزيع بعض الاراضى الشاسعة على بعض أتباعه ، يمتلكون بموجب تلك الهبة الارض بما عليها فى مقابل التزامهم بالولاء نحو هذا السيد ويدينون له بالتبعية والولاء العسكرى وامسداه بالعون المالى والتأييد متى احتاج اليه ، أن تدفق اليه بالتالى من تلك الاقطاعيات ضرائب بصفة مستمرة ترسل له على فترات دورية وبصفة استثنائية اذا ما احتاج لعون مالى .

وبالتمعن فى تلك الالتزامات التى تقدم من مالك الاقطاعية الى السيد نجد أنها فى المضمون تقع أولا وأخيرا على هؤلاء الفلاحين وتمتص من جهودهم ودلاقاتهم ودمائهم وفى مقابل حرمانهم من مصادر الحياة .

وكان أصحاب الاقطاعيات يوفرون تلك الالتزامات عن طريق استيلائهم على بعض المحصولات وفرض الضرائب ثم يقومون بدور الوسيط فى هذا وذلك بنقل تلك الاموال والمحصولات الى السيد بعد أن يستقطعوا جزءا منها يصبح حقا لهم .

كيفية نشأة البرجوازية

عندما نتعرض لبحث نشأة البرجوازية كمرحلة انتقالية من الاقطاع الى الرأسمالية في أوروبا إنما ندرس الأسس التي ارتكزت عليها في مراحل انطلاقها وأثرها في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ومدى تأثيرها على الفكر خلال تلك المرحلة .

كانت أوروبا خلال العصور الوسطى منقسمة في كياناتها الطبقي الى ثلاث طبقات . طبقة النبلاء والاقطاعيين وطبقة رجال الدين والطبقة العاملة .

وكانت حينئذ الحياة السياسية هي ميدان خاص لا يخوضه إلا النبلاء ورجال الدين نظرا لارتباطهم بالملكية التي تؤيدهم وتمدهم بعوامل القوة والسيطرة بينما الطبقة الثالثة وهي الطبقة العاملة التي لا تملك من الثروات والقدرات إلا طاقتها على العمل والكسح في سبيل الحياة وهؤلاء بعضهم يقطن القرى ويرتبط بمعيره بملك الأراضى الإقطاعيين التابعين لهم تبعية تفقدهم كياناتهم الأنسانية وأداميتهم البشرية — أما الباقي منهم الذين مكنتهم ظروف خاصة من التحرر من تلك القيود الرهيبة وانطلقواهم الى خارج تلك المقاطعات المنهزلة واقامتهم في مدن صغيرة تقع عند ملتقى مقاطعات متخذة الحرف والصناعات الحرفية معاشا لهم يهتمون منه أو يقومون بنقل التجارة من مكان لآخر وكانت

مهنة التجارة في العصور الوسطى تعتبر من المهن المنافية للشرف والنبالة وقيم الكنيسة الكاثوليكية وكانت تلك المفاهيم والمعتقدات تسود تفكير المجتمع الاوربي في ذلك الحين وهي موروثه من الرومان الذين كانوا يعتقدون بأن التجارة مهنة خسيسة لا يزاولها القوم الشرفاء بصفة مباشرة وانما تدار عن طريق الأرقاء والأتباع تؤول مكاسبها وأرباحها لهم من بعد .

وظلت تلك الأفكار الرومانية راسية في الأذهان طول تلك الفترات وتسيطر على العقول والسلوك خلال المجتمعات الاوربية واقد كانت اوربا منطوية على نفسها في ظل تلك الأوضاع الشاذة وهذا المجتمع المتنافر ، كل اقطاعية منها ترتبط فئانها العاملة بالسيد صاحب الأرض يتحكم في مصيرها ويقود حياة أفرادها مقابل أن يقدم لهم الطعام والكساء ويستبد بالإدارة والحكم فيما بينهم .

وكانت كل اقطاعية يسود فيها نظام اقتصادي مغلق وذلك بتوافر كافة احتياجاتها الأساسية وذلك عن طريق بعض الحرفيين داخل المقاطعة يقومون بممارسة الحرف التي تقوم على مواد أولية وخامات متوفرة في نطاق المقاطعة كالملابش والأحذية وأدوات الحديد .

وبمرور الوقت أخذت تلك الحرف البدائية تتطور وتتقدم وزاد احتياج وطلبات السادة الإقطاعيين لها مما أدى الى انتقال بعض الحرفيين من مجرد اتخاذها عمل بجانب عملهم الأساسي في الزراعة وتخصيصها للقيام بها وكانت تلك الحرف هي المخرج الوحيد من جدران عزلة الإقطاعيين وتصف سادتهم النبلاء .

وابتدأت الحرف تمارس في صورة فردية ثم أخذت تتطور حتى تلاقى الفئات الحرفية في مجموعات متخصصة كل في مجاله ، ثم استتبع ذلك ظهور الأسواق التي يتم فيها عرض المنتجات الصناعية وبالتالي زاد الاقبال عليها مما أدى الى تقدمها وتكامل صناعتها وانبثقت مجالات متسعة لعرض منتجات الصناعات والحرفيين حتى تحوالت كثير من القرى الصغيرة الى مدن يسكنها فئات متباينة من الحرفيين ونشأت الأسواق الدائمة التي يتم فيها التبادلات والمقايضات .

وأخذت تلك الفئات ترتقي سلم الطبقات المادية واتخذت مكانا مرموقا من الاقتصاد وأثروا ثراء كبيرا حتى بدأت طبقة الأشراف والنبل ورجال الدين في مهاجمتهم وضربهم بسموم الحقد والكراهية محاولين تحقير شأنهم واذلالهم من الناحية المعنوية واعتبروا أن تلك الطبقة لا تستحق مظاهر الأدمية وكانوا يطلقون عليهم *Porjowa* البؤساء أو المنطفلين باعتبار أن عمس العمل التجارية عمل خسيس ودنيء .

وبالرغم من تلك الأقاويل والادعاءات انطلقت الطبقة البرجوازية من خلال تعسف النظم الاقطاعية وعلى أثر اذلال السادة للفئات الشعبية والتحكم في مقدراتهم وكيانهم العام والخاص وانفجرت تلك الفئة تحمل في عقولهم أفكارا جديدة متطورة وتكن في قلوبهم تطلعات الى آفاق ظلوا سنين طويلة تراودهم أحلام وأمانى يستهدفون تحقيقها وتحويلها من مجرد أفكار وخيالات الى حقيقة محسوسة ذات واقع حيوى بالنسبة لهم ترتقي بوجودهم من الحرمان والكبت والآلام الى آفاق التحرر والشعور بالذاتية الانسانية .

وكان مجرى الأحداث التاريخية العالمية يعتبر مجالا خصبا لهم ونسأهم في ارساء أقدامهم وتدعيم كيانهم فكانت الحروب الصليبية (١٠٩٦ — ١٠٩٩)

قد فتحت لهم أبوابا شاسعة لتبادل التجارة من الغرب والشرق ونقل التوابل والعاج والأحجار الثمينة من الشرق الى الغرب ثم تنقل من الغرب الى الشرق المنسوجات والصناعات المتعددة ، مما أدى الى تطور مظاهر الحياة ودب النشاط في المدن وأصبحت ملتقى لفئات متباينة وأخذت المظاهر الاقتصادية في التطور وتسير وفقا لأهواء تلك الفئات التجارية حتى أصبحت ذات مكانة وكلمة في المجتمعات الأوروبية .

ومما ساهم في ارساء وتدعيم جذور هذا النجاح والتطور واعلاء شأن تلك الفئة هذه الثورات المتعاقبة التي كانت تنطلق شرارتها من الفلاحين ضد ظلم الطغمان الإقطاعي وضد تلك الإدعاءات التي كان يرفعها الإقطاعيون عليهم لحرمانهم من حق استغلال مصادر الثروات الطبيعية ومنها ثورة جماعات الجاكيري *Jacqueries* في مقاطعات شمال ووسط فرنسا التي كانت ضد ادعاءات الإقطاعيين الذين منعوا الفلاحين من استغلال الغابات ومجاري المياه (*)

وكذلك ثورة الفلاحين في إنجلترا في نهاية القرن الرابع عشر التي امتدت الى اجزاء كبيرة منها وانتشر الفلاحون المسلحون وعلى رأسهم « وات تايلر » وهددوا منازل الإقطاعيين ولكن تم القضاء على هذه الثورة بأساليب الخداع والعنف وقتل « تايلر » غدرا بعد أن اتى الإقطاعيون في روع الفلاحين أنهم سيعملون على تحقيق أهدافهم حتى تخدرت تلك الجماهير وعادوا الى منازلهم وقامت هناك حملات تأديبية عصفت بالقرى في قسوة ووحشية .

(*) تطوير الملكية بقلم احمد محمد شنيب

كما كان هناك ثورات أخرى في ألمانيا منها ثورة الفلاحين في « سواب Souabe » في عصر لوثر وكذلك حروب الفلاحين في روسيا بقيادة « ستيفان زورين » في القرن السابع عشر و « أميليان يوجا تشيف » في القرن الثامن عشر والتي طالب فيها الثوار بإعادة تسليم أراضي الإقطاعيين والدولة إلى الفلاحين وانتهاء السيطرة الإقطاعية .

وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ تِلْكَ الْانْتِفَاضَاتِ الثَّوْرِيَّةَ الْمَعْبُورَةَ عَنْ أَمَانِي وَرَغَبَاتِ الْفَلَاحِينَ وَالْفَتَاتِ الْكَادِحَةِ وَمَحَاوَلَتِهِمْ الْمُسْتَمْرَةَ لِلْحَصُولِ عَلَى حَقِّ الْحَيَاةِ قَدْ عَادَتْ عَلَى الْبَرَجَوَازِيَّةِ فِيمَا بَعْدَ بَآثَارِ سَاعَدَتْ عَلَى نَشُوئِهَا وَارْتِفَاقِهَا وَاحْلَالِ اسْتِغْلَالِ الرِّأَسِيَّاتِ مَحَلَّ اسْتِغْلَالِ الْإِقْطَاعِيِّ .

وَلَا يَتَسَعَّ مَجَالُ بَحْثِنَا هَذَا لِاسْتِرْسَالِ فِي مَنَاحِجِ الْبَرَجَوَازِيَّةِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْمُتَعَاقِبَةِ الَّتِي أَدَّتْ فِي الْنَهَايَةِ إِلَى سَيْطَرَتِهِمْ عَلَى مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ وَأَمَّا سَنَكُنْ فِي الْمَرُورِ عَلَى نَتَائِجِ صِرَاعِهِمْ . فَكَانَ انْطِلَاقُ الْبَرَجَوَازِيَّةِ إِلَى مَيْدَانِ الْإِنْتِاجِ مُسْتَفِيدًا عَلَى عَامِلِ رَفْعِ مَعْدَلَاتِ الْأَرْبَاحِ بِجَانِبِ الْحِفَاطِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَسَلَكُوا فِي هَذَا مَنَهِجًا لَا يَقِلُّ اسْتِغْلَالًا عَنِ الْمَنَهِجِ الْإِقْطَاعِيِّ فِي اسْتِغْلَالِ الْفَتَاتِ الْبَشَرِيَّةِ .

وَبَعْدَ أَنْ نَمَتْ وَتَرَاكَمَتْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ وَتَضَخَّتْ خَزَائِنُهُمْ تَنَكَّرُوا لِتَارِيخِ صِرَاعِهِمْ وَتَنَاسَوْا مَطَالِبَ الْفَرْدِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَاتَّبَعُوا أَسَالِيبَ الْمَكْرِ وَالْدِهَاءِ نَحْوَ إِدَارَةِ مَشَارِعِهِمْ وَاسْتِثْمَارِ أَمْوَالِهِمْ ضَارِبِينَ بِكُلِّ الْمَبَادِيءِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَقُوقِ الْفَرْدِيَّةِ الَّتِي كَانُوا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ عِبْدًا لِسِرَابِهَا حَالِينَ بِوُجُودِهَا .

ثُمَّ جَاءَ الْإِصْطِدَامُ الْجَتَمِيُّ بَيْنَ الْفَتَاتِ الشَّعْبِيَّةِ وَبَيْنَهَا عِنْدَمَا ظَهَرَتْ الْفَجَوَاتُ الْعَمِيقَةُ بَيْنَهُمَا وَتَبَلُّورَتْ مَعَالِمُ السَّيْطَرَةِ وَالْإِسْتِغْلَالِ لِلْمَرَاثِقِ الْأَسَاسِيَّةِ وَالْوِظَائِفِ

الحساسية من وراء قوة المال وشراء القانون .

واندفعت الجماهير تشد من أزرها طبقة النبلاء ورجال الدين الذين اتجهوا الى قوة الجماهير بعد أن زالت مكانتهم وسيطرتهم أمام النفوذ الرأسمالي السريع التطور واتفق هذا المحور المكون من الشعب والنبلاء ورجال الدين ضد الملكية التي وجدت من البرجوازية خير معين لها أكثر فاعلية من النبلاء ورجال الدين من حيث تدعيم ملكهم واستمراره ، وحاجتهم الى الأموال لتكوين اجهزتهم الادارية والدعائية وهذا العنصر المادي أصبح متوفرا عند القوة الاقتصادية الجديدة التي تتركز مصادرها في أيدي البرجوازية التجارية والصناعية الجديدة .

ومن زاوية أخرى نجد أن البرجوازية قد باركت هذا التحالف وانطلقت نحو الملكية تساندها وتجيّب لها ما تطالب نظرا لما تداركته انها في حاجة الى مزيد من الأمن والاستقرار المبدئ ، وعلى هذا الأساس انطلقت لامداد المملوك بما يحتاجون اليه من مال وسلاح لمحاربة طبقات النبلاء والأشراف ورجال الدين الذين يمثلون بقايا عصر الاقطاع وصوره لتاريخ لا يشرفهم ووسيلة لاطفاء نيران تمأرجح في صدورهم ورواسب تترك في نفوسهم عقدا مترسبة .

كما أن هذا الاتفاق والتحالف كان في حد ذاته قوة تحد من مطالب الفئات الشعبية التي أصبحت عقبة أمام المزيد من الاستثمارات المالية على أثر النهضة الفكرية وظهور الفلسفات الجديدة المعطورة .

فلسفة الفكر السياسي البرجوازي

من الواضح أنه في خلال كل نظام معين تكون هناك بعض المعتقدات والأفكار التي تسيطر على عقول الفئات الخاضعة له تتحكم في نزعاتهم وتعطي لسلوكهم طابعا خاصا وتنظم لهم مناهج خاصة تقوم عليهم — علاقاتهم العامة والخاصة سواء في نطاق مجتمعهم أو خارجه .

وعندما تسيطر فئة خاصة على تقاليد السلطة في مجتمع ما سواء أكانت تمثل سادة العبيد أو الاقطاعيين أو البرجوازيين فإنها تعتمد الى ارساء أفكار معينة وقيم خاصة تؤول في النهاية إلى خدمة مصالحهم الشخصية وتزبد من سطوتهم وتمكنهم من الاستمرار في تسييرهم والسطو على مجهوداتهم وثروتاتهم .

فعلى سبيل المثال نجد أن المجتمع البرجوازي يعبر عن الحرية بمضمون خاص هو في حد ذاته تعبير عن حرية الاستغلال والتحكم في وسائل الانتاج والتوزيع وما يتبع ذلك من سيطرة على مقاليد الحكم حتى يصبح المضمون الحقيقي للحرية بمعانيها السامية الخالدة مسلوقة زائفة وأن بدت لها بعض الملامح والظواهر المحدودة فلا تكون إلا كخدر للعقول والوجدانات طالما أن ارادة الفرد لا أثر لها نظرا لوجوده خلال أوضاع شاذة متمثلة في واقع مادي لتحكم واستغلال صاحب المال لوسائل الانتاج المادية والبشرية .

وتصبح حرية البرجوازية هي حرية الجشع واستغلال كدح العمال وعرقهم مما يجعلهم يعيشون تحت مزية الحرمان وآلام البؤس والانعزال .

وهذا ما كان خلال مرحلة التحول من نظم الافطاع الى الرأسمالية في أوروبا ، فقد اتجهت فيها التحليلات السياسية الى المنهج الميكانيكي الذي يبرز الوسيلة من أجل غايتها مهما كانت تلك الغايات والوسائل منافية للقواعد الأخلاقية والقيم الانسانية السامية .

ومن ثم أصبح التفكير السياسي يحمل في أعماقه طابع المراوغة والمكر وتنكرت السياسة في مضمونها العميق نحو التوفيق بين المصالح المتضاربة وتنظيم العلاقات بين الأفراد في نطاق المجتمع الواحد وسادت سياسة المصالح والفرقة وسياسة الاستغلال والاحتكار .

ولم ينته الفكر البرجوازي عند تلك الحدود وإنما امتد إلى تبرير مذهب الحق الالهي الذي يهدف إلى أن صاحب السيادة يستمد سلطته من الله مباشرة فلا يسأل الا أمامه وان مجرد المقاومة الشعبية وتنكرها لتلك السلطة هي جريمة لا تغتفر وتمرد لتعاليم السماء والمشيئة الالهية ؛

وكان المفكرون والفلاسفة خلال تلك المراحل يقدمون آراء متباينة منهم ما يبرر تلك الأوضاع وآخرون يقدمون ما يثبت بطلانها وينكرون لها .

ولقد ظهرت كتابات متباينة دارت معظمها حول ما سمي بالعقد السياسي وما يترتب عليه من حقوق وواجبات متبادلة ما بين السلطة والجمهور ووضع منهج معين لكل من الطرفين اذا ما أخل احدهما عن قواعده حق للطرف الآخر أن يتهدى له ويتمرد عليه .

ومن هذه الفلسفات سوف نتعرض لثلاثة منها تبلور من خلالها الجحجج للفعالية التي تقوم عليها سيادة الشعب وتمكنه من المطالبة بحقوقه المشروعة وفقا لهذه العقود الافتراضية والتي تبلورت في فلسفات كل من توماس هوبز وجون لوك ، وجان جاك روسو .

فلسفة توماس هوبز

استند هوبز في فلسفته نحو افتراض عقد اجتماعي يرم بين السلطة والشعب ويخرج بها الأفراد من حالة الطبيعة الى حالة الاستقرار .

وصف هوبز لحالة الطبيعة

كانت نظرة هوبز لحالة الطبيعة الاولى نظرة متشائمة فيجاء تصويره لها في حالة يستند فيها الفرد نحو قضاء حاجته والاحتفاظ بممتلكاته الى عامل القوة والمصلحة الشخصية ويهتدى في سلوكه وفق لما تمليه عليه نزواته وغرائزه وشهواته ويحتفظ بحقوقه وممتلكاته بالقدر الذي يتوفر لديه من القوة ما تمكنه من الحفاظ عليها .

وقد اتجه هوبز في تفكيره على أن ما دفع الناس للتلاقى وتكوين هيئات اجتماعية واختيار سلطة عليا تنظم أمورهم وتحد من طغيان الأفراد فيما بينهم ، هو من اجل الحد من حالة الحرب التي تكون قائمة بين الجميع على السواء .

تفسير العقد الاجتماعي لـ هوبز

اشترط هوبز في تفسير هذا العقد بتنازل الجميع عن ما لهم من حقوق مطلقة وسلطات لا حدود لها في مقابل خلق الأمن والاستقرار وتمكينهم من الحفاظ على ممتلكاتهم ومعتقداتهم وذلك بأن تعاقد هؤلاء الأفراد فيما بينهم لتحويل تلك السلطة المطلقة لفرد أو فئة معينة يختارها الأفراد بحيث لا يكون هناك أي التزام من تلك السلطة قبل الأفراد تدين به أو تسأل عليه وإنما وجودها من أجل التوفيق بين الارادات الفردية المتباينة . وهذا العقد هو عقد نهائي لا رجعة فيه وتنتهي مسؤولية الجماهير حينما تستقر تلك السلطة .

نهاية هذا العقد

لم يترك هوبز تلك الصبورة التي يتجمل فيها هذا العقد في حالتها المطلقة وإلا ما كانت تقل في وجودها عن حكم ليفيائان (*) وإنما ترك هناك مظاهر

(*) ليفيان / شخصية اسطورية نقلها الرومان عن الاساطير العبرانية القديمة وتمثل الشخصية في العادة في صورة وحش بحري كبير أو غول مرعب يعيش في البحر متحكما في أمره، ومستندا في حكمه على الطغيان .

معينة اذا حرمت منها الجماهير حق عليها التمرد والخروج من العقد الاجتماعي —
فيخضع الأفراد للحاكم والولاء له يتوقف على مدى سلوك السلطة نحو توفير
مظاهر الأمن والحماية والحفاظ على وجودهم الانساني . فاذا ما فشل الحاكم في
تلك المظاهر للشعب حق لهم الارتداد لحالته الطبيعية واختيار سلطة اخرى
لديها الامكانيات لتحقيق وجودهم ومن ثم فهو بر استهدف السلطة في منطقة
لا لشيء إلا للقضاء على حالة الفوضى حتى ولو كان هذا على حساب الحرية
الفردية .

* * *

فلسفة جون لوك

تضمنت فلسفة لوك اولي مظاهر السيادة الشعبية وتعبيرا صادقا لها فجاءت تلك
الفلسفة في كتاب الحكومة المدنية سنة ١٦٩٠ في أعقاب ثورة سنة ١٦٨٨ الانجليزية التي
قام بها حزب الهويج *Whigs* ضد حكم آل ستيوارت التي استندت في حكمها الى
مبدأ السلطة المطلقة والحق الالهي واعتبرت سلطة الحاكم مستندة من الارادة
الالهية ومن يتمرد عليها فقد خرج عن الارادة السماوية .

وعليه فجاءت أفكار لوك تخدم رسالة هذا الحزب وتعطي الشرعية لأعمالهم
في خلع ملوك آل ستيوارت . وقد اتبع لوك في منهجه نفس منطق هوبز عن
فكرة العقد السياسي ولكنه وضع السلطة في حالة مقيدة .

وصف لوك لحالة الطبيعة

اتجه لوك لوصف حالة الطبيعة وصفا يستند على أساس عقلي من حيث أن رغبات الانسان هي الدافع الأول والأخير لسلوكه ولكن في نفس الوقت تتوفر لدى هذا الانسان من القدرات ما تمكنه من الوقوف أمام تلك الرغبات والتحكم فيها ومنعها من السيطرة على سلوكه خلال البيئة الحاوية له .

وكذلك اتجه لوك بأن الجهود الانسانية تستهدف في وجودها احلال السعادة والرفاهية وتطوير الامكانيات الانسانية نحو الكمال .

والطبيعة في مفهومه هي حالة من المساواة والحرية الكاملة يخضعان لطبيعة العقل البشرى نحو اتجاهاه الغريزي الى العمل الفاضل والسلوك الانساني نحو حماية الضعيف من اعتداء خارجي والحفاظ على حقوقه خلال الهيئة الاجتماعية وهو ما يسمى بحق الماقية الطبيعي وفي هذه الحالة يكون الالتزام الفردي وفقا للقواعد الأخلاقية والضمير الانساني والقانون هنا هو قانون العقل .

ومن ثم فالأفراد في مثل تلك الحالة لهم مطلق الحرية في أن يسلكوا أي منهم -يج يتراءى لهم ويعود بالخير عليهم بشرط الالتزام بقانون الطبيعة الاخلاقي والأخذ بمبدأ المساواة التبادلية وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين وكل فرد له الحق في أن يملك من الثروات الطبيعية والامكانيات ما يوفر له حاجته الأساسية ومتطلبات معيشته ويرتكز هذا على مجهود الانسان وقدرته على الاستهلاك .

وفي خلال تلك الحالة الطبيعية يكون من حق الانسان الفرد أن يحافظ على ممتلكاته ويرد العدوان بالمثل .

تفسير لوك للعقد الاجتماعى سنة ١٦٣٢ — ١٧٠٤

مما سبق نستدل على بعض المظاهر التى وضعها لوك لوصف حالة الطبيعة التى يصبح فيها لكل فرد الحق فى الحرية والحق فى الملكية والحق فى العمل كما وأن له واجبات والتزامات نحو جماعته فى أن يحسن استغلال ما وهبه الله ويحافظ على حياة الآخرين ويحترم آراءهم ومشاعرهم فتلك الواجبات فى مضمونها ما هى إلا التزامات أخلاقية إنسانية ليس لها معايير أو مقاييس أو سلطة تجبر على اتباعها إلا العقل الإنسانى . ولكن هل تسير تلك الحياة الطبيعية على هذا المنوال المثالى وهل نتذكر لآثار الفرائز البشرية الشاذة والمنحرفة ؟ من هنا اتجه لوك لتفسير غاية العقد السياسى بعد أن تدارك بأنه لى تستقر الأمور ويستتب الأمن يجب أن تملأ الفجوات التى تتخلل هيكل الحالة الطبيعية من حيث :

(١) عدم وجود القوانين التى تعبر فى مضمونها عن حقيقة الرغبات الجماعية بتباين مستوياتها .

(٢) عدم وجود معايير لها .

(٣) عدم وجود السلطة القادرة على متابعة السلوك الإنسانى وإجبار المنحرفين بالالتزام لتلك القوانين المتفق عليها .

وتبعا لهذا اتجهت الفئات للتلاقى لخلق المجتمع الذى تسوده تلك المفاهيم ، مجتمع قادر على حماية الحريات فى ظل المساواة الطبيعية ويخلق حياة يسودها الأمن المتبادل والحماية المكفولة للجميع والهدوء الشامل .

وهذا الانتقال قد تم وفقا للارادة الجماعية التي هي أصل لكل حكومة شرعية ثم انضمت تلك الفئات فيما بينها على عقد اجتماعي هم طرف من أطرافه ، والطرف الآخر هو السلطة الحاكمة المختارة وعن طريق هذا العقد تتمكن تلك الجماعة من إقامة حكومة ذات سلطة موكلة لها الحق في وضع القوانين وفرض الجزاءات وحماية أمن الدولة واستقرارها مستمدة قوتها ووجودها من السلطة الشعبية ، وعليه فالفئات البشرية الحق في متابعتها ومباشرة سلوكها واسقاطها متى ضلت غايتها وانحرفت لى سلوكها عن المضمون الذي احتواه العقد وتم الاتفاق عليه وحق للشعب مقاومتها حينئذ لانها تصبح في تلك الحالة سلطة غير شرعية من حيث وجودها واستمرارها .

وهكذا كان لفلسفة لوك أعظم الأثر في تطوير الفكر الانساني من حيث علاقة الفرد بالسلطة وأن لا شرعية لتلك السلطة إلا بقدر تحقيق مطلب الجماهير الانسانية وقد وجه النقد لفلسفة لوك من حيث تصورهما في التعبير عن حقيقة متطلبات الفئات الجماهيرية بتباين مستوياتها من حيث جعل الغنى يزداد في ثرائه والفقير يظل على فقره وفقا لما افترضه لوك من حيث حماية ممتلكات الفرد وعدم التعرض لها حفاظا على حقوقه الطبيعية المشروعة ، ولكن لا نستطيع ان ننكر اثر فلسفة لوك في منح آفاق متسعة لظهور فلسفات تعبر عن حقيقة الفكر البشري ومتطلباته الأساسية .

فلسفة جان جاك روسو

تتضمن فلسفة روسو التي تبلورت في كتابه « العقد الاجتماعي » بأنه ليس هناك أعمق معنى ولا أسمى غاية تعلو التضامن الاجتماعي وقد أصاغها في الميثاق الاجتماعي فقال « يضع كل واحد منا نفسه وما أوتي من قوة مشتركة تحت الإدارة العليا للارادة العامة ، ولتقي بهيئتنا كل عضو كجزء من كل لا يتجزأ » .

هكذا جاء تقديس روسو للارادة العامة التي هي في مضمونها تعد تعبيراً شاملاً عن متطلبات الجماهير في كافة المجالات وقد عبر روسو على أنه ليس هناك صاحب سلطة مطلقة مستبد ولا صاحب سيادة إلا الجماهير على السواء هذه هي الفكرة التي تسلطت على روسو وانبثقت على أثرها فلسفته في العقد الاجتماعي .

وقد أشار روسو على أن هذا الالتقاء الجماعي يتمثل في صورة « الكل » الذي يتكون من الأفراد كجزء من كل متكامل له ارادة مشتركة ومطالب واحدة ، فاذا ما كان هناك ، استبداد من الكل فبالنألى ما تستبد هي الارادة العليا المشتركة ، وهكذا لن يكون هناك استبداد لأنه في الواقع عندما يتنازل كل فرد بحقوقه لكل فانما بطريقة غير مباشرة يحافظ عليها لنفسه وذلك لأنه يضع حرته بين أيدي الجماعة التي نشأت عن طريق الارادة الفردية المشتركة وبالتالي فلزام على الفرد أن يقر لها السيادة في صورة ولأئه للقانون العام المشترك الذي تعلو فيه الارادة العامة كل شئ دون تمييز أو اعلاء فرد على آخر فالمواطنون جميعاً على قدم المساواة وأى قانون لم تقره الجماهير يصبح باطلاً لا أثر له أو كيان .

كما أن روسو قد توصل بتفكيره الى الآثار التي قد تترتب على تركيز الثروات في أيدي فئة معينة تستأثر بها وبالتالي تتحكم في مقدرات الفئات المحرومة الفقيرة وعلى هذا الأساس فعلى الدولة اذا ما انجهدت الى اقرار المساواة بين الفئات الشعبية فعليها ألا تقصر منهجها على مجرد الحفاظ على الحريات وممتلكات الأفراد بالأوضاع التي عليها وإنما يجب أن تبدأ من قاعدة واحدة متساوية وتزيل مظاهر عدم المساواة والتفاوت الساحق في الممتلكات والحيازات الواقعية.

وعليه فعلى الأفراد جميعاً على السواء النخلى بممتلكاتهم الى الجماعة بغية الحصول على الحرية المدنية والاقتصار بملكية كل ما تقدمه الجماعة له بحيث يكون هذا الالتزام نحو جميع الأفراد على السواء والصالح النام غاية عليا تسمو على السلوك الانساني عامة وهكذا يقوم العدل والمساواة على أسس فاضلة أخلاقية.

ومما لا شك فيه أنه كان لروسو آثار عميقة في اتجاهات الرأي العالمي وخاصة في الحركات التحررية في أمريكا وفي انبثاق الثورة الفرنسية وعلان وثائق حقوق الإنسان وسادت العبارات التي تؤكد سيادة الشعب وحقوق متابعيه لسلوك الحكومات يبدل اعضاءها وفق ارادته متى انضجحت انحرافاتهم وصارت عباراته لها قدسية خاصة في التعبيرات عن الحرية يستشهد بها في كثير من المواقف السياسية .

* * *

هكذا كانت مظاهر الفكر خلال التطور البرجوازي ، انفعالات واحساسات تجول بالعقول والصدور وعدم الرضا عن الأوضاع الاستبدادية المطلقة ومظاهر الاستغلال البشعة . وأخذت تلك الأحاسيس والأفكار في التطور وتفتحت العقول وامتدت تطلعات البشرية الى أبعاد أكثر عدلاً ورفاهية. وفي نفس الوقت أخذت مصادر الثراء بالنسبة لأصحابها في الازدياد والتعدد

والازدهار وارتفعت مستويات المعيشة على حساب الطبقات السكادحة الفقيرة وما لبثت البرجوازية خلال القرن السابع عشر أن حظيت بالنمو والازدهار بفضل ثرائها حتى اتجهت لتشجيع الحكم المركزي الناشئ كنظام للدول القومية الحديثة وتحولت في حكمها الى يبروقراطية مستبدة . ثم جاء القرن الثامن عشر بازدهار في حركات التصنيع لاسيما في انجلترا وفرنسا مما شد أوصالها ودفعها إلى إزدياد سيطرتها على زمام الأمور السياسية حتى أصبح لسلطانها الوزن والتقدير في مجال الحياة السياسية والاجتماعية .

ومن هنا تتضح لنا حقيقة هي من خصائص الفئات الاستغلالية على مر العصور والأجيال فتلك الطبقة البرجوازية نجدها في فجر نشأتها تتقرب وتؤيد الحكم المطلق وتمسده بالعون نظرا لحاجتها لمزيد من القوة تمكنها من إرساء جذورها في المجتمع ، نجدها على غرة انقلابت على هذا النظام الذي أصبح لها عثرة في طريق نهجها للثروات واستغلال الفئات فتتجه للمكر والخديعة وتبحث عن نظام يعيد لها الاستقرار الذي تزعزع ويحقق لها الحرية بما يتفق ويلئم تطورها وتطور التفكير الاجتماعي .

فبدأت البرجوازية في الترحيب بسقوط الحكم المطلق وتباور موقفها هذا حيال ثورة انجلترا سنة ١٦٨٨ وكما كان أيضا إزاء الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ فقد عمدت الطبقة البرجوازية إلى إرساء أفكار وقيم جديدة في نفوس الفئات الشعبية ودفعها بطرق دنيئة غير مباشرة وذلك بإشعاع أفكار تحررية ملتوية تحذر بها الجماهير وإرساء الأفكار التي تخدم بدورها مركزها ومصالحها نحو تقديس حق الملكية الشعبية وحرمان السلطات من حقها في الاعتداء عليها وألا يكون هناك حينئذ حق في التنكر لها والثورة عليها وهذا ما كان بالفعل في الثورة الفرنسية ، فكر يسعى للحرية والمساواة والأخاء وحق الاشتراك في الحياة السياسية بينما كلها في الواقع مجرد فلسفات مخدرة ومناصب وهمية لا يتطرق لها

فى الواقع جائع أو محروم فهى ثورة لقت بثورة شعبية قامت من أجل الفضاء على النبالة والاقطاع وارساء شعارات الحرية والمساواة والأخاء ولكنها فى حقيقتها مجرد شعارات لا تمكن من السيطرة عليها الا الطبقة البرجوازية ولا تحمى بدورها الا مكاسبهم ووجودهم .

وهتفت الفئات الشعبية للحرية بناء على مناقشات دارت بين الفلاسفة البرجوازيين وانخدعوا على أثرها واندفعوا الى الثورة التى أدت الى قيام النظام النيابى والمجالس المنتخبة والممثلين للأمة وسلم كل هذا الى الفئة البرجوازية التى امنت وجودها بالعكسيف العلمى والقانونى بأن جعلت المنتخب يمثل الأمة كلها وليس الهيئة ، وبهذا يتحقق انقطاع الصلة نهائيا بين المنتخبين والناخبين طوال مدة عضويتهم وعليه فبدلا من أن تكون السلطة فى يد الملك ومنعزل بها أصبحت فى أيدي المنتخبين يسيرونها وفقا لارادتهم ومطامعهم الشخصية ، وبهذا ضمنت الطبقة البرجوازية عدم وصول أى فرد الى مقاليد الحكم والانفراد بها دون رقابة أو منافسة عليها ، لأن المرشح الكادح لا يملك نقودا تمكنه من ترشيح نفسه وإنما سينقاد وراء من يلقي اليه حفنة أكبر من النقود .

وغدت البرجوازية ، بعد أن ارتفعت الى قمة المجتمع وسيطرت على مظاهر وجوده السياسية طبقة احتكارية انتهازية توجه النظم لصالحهم من أجل تنمية ثرواتها فكان من نتيجة اطلاق الحريات لأصحاب الأعمال أن أسفرت عن أبشع صور الاستغلال والاحتكار للطبقات العاملة .

وتبلورت آفات الرأسمالية وبرزت المنافسة الاستغلالية وعلى أثرها أصبحت الفئات العاملة تستغل أسوأ الاستغلال وتجمعت مصادر الثروات فى أيدي قليلة وعاشت الفئات العريضة حياة تسودها ألوان متباينة من الحرمان والبؤس والظروف القاسية وآفات الجمل والفقر والمرض ،

وهكذا تتضح لنا حقيقة راسخة بأنه سواء في خلال حياة العبودية أو
الافطاعية أو الرأسمالية لم يكن هناك إلا تفاوت طبقى رهيب انعدم فيه تكافؤ
الفرص والمساواة سواء في توزيع الدخول أو الثروات الوطنية وانبثقت الى
الوجود معالم البطالة بأنواعها المتباينة وتباورت معالم التحكم في المقدرات والنفوس
واندلعت بذور الصراع الطبقي ووقعت كل تلك الرواسب على كاهل الفئات
العاملة الكادحة والطبقات الوسطى الصغيرة ، التي ولدت بالتالى ثغرات ضعف في
نفوسها من حيث تطلعها الدائب نحو السعادة والرفاهية والكمال التي كانت تنفذ
من خلالها تلك الفئات المستغلة من أجل تسيخير هذه الفئة الكادحة واستغلالها
وتوجيهها نحو ما يحقق لهؤلاء الانتهازين مطامعهم الدنيئة وغاياتهم الشيطانية
وبمجرد أن يتم الاعتلاء والسيطرة لهؤلاء السادة على تلك الفئات حتى يتنكروا
لجهودها وتأييدها ومساندتها في مراحل صراعهم على السلطة .

ولكن لم تظل الحال على تلك الوتيرة ولم تظل الفئات المحرومة قابضة في
قواقع الحرمان والبؤس والسلبية ، ولكنها انطلقت تعلن التمرد في وجه النظم
الاحتكارية سواء أكانت عبودية أو افطاعية أو رأسمالية مستغلة ، تطالب
بحقوقها الانسانية وحققها في الحياة والسعادة وبهذا انبثقت للوجود معالم نظام
متكامل ومن خلاله أصبحت للحياة معنى يستهدف تنظيم الوجود البشرى وتحرره
من قيود الماضى المنزمتة انها معالم الاشتراكية بأركانها الانسانية الخالدة ومجالها
الخصب لنمو وتحقيق كافة متطلبات البشرية بتنوع مظاهرها وحدودها .

تطور الفكر الاشتراكي

ان تاريخ تطور الفكر الاشتراكي هو التاريخ الذي يسجل في سطورهِ مراحل نضال الانسانية من حيث تحقيق الكيان والذاتية الفردية بأعمق صورهَا وأشملها تعبيراً عن حقيقة خباياه ومتطلباته ونزعاته الكامنة التي تسمو بوجوده الى آفاق الانسانية المتكاملة الخالدة التي تتجاوز فيها وتسمو بكرامة الفرد وتتجاوز معالم الاستقرار الفكري والمادي خلال البيئة الحاوية له .

ومن خلال هذا النضال نقف على كثير من المحاولات المستمرة والانتفاضات الجادة نحو تحقيق وتوفير حاجات الفرد اما بصورة خاصة أو بصورة شاملة تتضمن متطلبات المجتمع على السواء .

وبنتج مع مراحل الفكر الاشتراكي نجد أنها كانت تنبثق من خلال ظروف وأحداث ذات طابع له خصائص ودلالات معينة تتلاقى في صفات متشابهة من حيث التكوين والآثار .

فالفكر الاشتراكي دائماً وأبداً ينبثق للوجود في مراحل يسود فيها الظلم ويعم الاستغلال والتحكم وتتضح فيه معالم استغلال الانسان لأخيه الانسان وعلى مر آلاف السنين ومئات القرون تبلورت حقيقة واضحة المعالم والآثار ألا وهي كلما كان هناك استئثار من قلة معينة في المجتمع لمصادر الثروات والأدوات الانتاجية ، كلما كان هناك فئات عريضة تئن تحت نيران الظلم وتنوء ظهورها من أنقال الاستغلال والسخرة والتبعية .

ورى ظل كل مجتمع من تلك المجتمعات الشاذة ذات التفاوت الطبقي من كافة الوجوه تتكون هناك أقلية تعيش عيشة البذخ والترف بينما الأكثرية تتجرع كؤوس الموت والحرمان ، تشقى وتكدح من أجل ما يقيم أودهم وذلك في مقابل رفاة تلك الأقلية التي تتحكم في مقدراتهم ومصادر معيشتهم ووجودهم .

وطوال تلك الآلاف من السنين ظل الفكر الانساني في صراع ومحاولات دائمة من أجل القضاء على تلك المظاهر المنحرفة عن الغايات الانسانية وانعدام الحقوق البشرية خلالها وهذا ما يملأ قلوب المحرومين لوعة وحسرة لوجود هذا الطغيان وهذا الكبت والاستغلال الناشئ عن قلة فاسدة معوجة .

ومضى تلاقت تلك الأفكار الانسانية المتشابهة تقاربت مشاعر وأحاسيس الفئات العريضة المتطلعة الى حياة يسودها العدل والمساواة وتوحد السلوك البشري فكريا وماديا وانطلق نحو غاية تتبلور فيها معالم العدالة والاخاء والحرية والمساواة الحقيقية وتاريخ تطور هذا الفكر الانساني خلال تلك المراحل الهادفة الى تلك الحقوق البشرية الخالدة هو سجل يحوى في سطوره تاريخ تطور الفكر الاشتراكي على مر السنين والالجيال .

والاشتراكية بمضمونها العميق ومعانيها السامية لم تكن في وجودها ولادة القرن الثامن عشر أو التاسع عشر أو ترجع إلى عصر النهضة بصفة عامة وانما تمتد وجودها الى أعماق بعيدة ترجع الى سنين طويلة فيما قبل الميلاد وان كانت تعبر في وجودها بألفاظ مختلفة متعددة وكانت في نفس الوقت مضمونا واحدا لأسماء كثيرة مترادفة تهدف الى غاية واحدة وان تعددت السنين وتفاوتت الظروف التي تنبثق الى الوجود من خلالها فكرة الحياة الاشتراكية الخالدة وان كان هذا الفكر الاشتراكي يقترن تارة بالفكر الخيالي والوجود اللا محسوس وتارة أخرى يتخذ الصيغة المادية .

وتاريخ الفكر الاشتراكي الخيالي قد تسلم دعوته بعض الانبياء القدماء

الذين اندفعوا يدعون الى التاخى الانسانى فى مراحل كان يسودها الفساد والافراد مندفعون نحو الملمات على حساب الفئات الفقيرة المحرومة ومن هؤلاء القادة نجد هاموس ويوشع وأشعيا وأرميا وحزقيال وغيرهم . فنجده هؤلاء قد أخذوا يتأملون مظاهر الوجود وتلك الهوة السحيقة التى يكاد يترلق فيها كانت الفئات وتسوفهم نحوها أعمالهم الفاسدة الثرىرة ونفوسهم المتعطنة .

وكانت دعواتهم تستهدف الاصلاح وتقويم النفوس واقامة العدل وجعل الحق والرحمة تنصدر السلوك الانسانى عامة وكان سيخطمهم أيضا على شرور وفساد رجال الدين وتنكرهم لقصر العبادة على حرق البخور ووضع التعاويذ ، وبشروا بهلاك هذا القوم ونجاة هؤلاء المحرومين ووعدوهم بملكوت سماوى تتوفر فيه مايتطلعون اليه وينشدونه فى حياتهم ملكوتا يكون العدل شريعته والخير قوامه والرفاهية شعاره والمساواة مقياس الحياة فيه وتتبدل حياتهم من أحزان وهموم إلى سعادة ورفاهية .

وهناك أنماط أخرى من الصور المثالية المتكاملة التى اتجهت لصبغاتها أفكار بعض الفلاسفة القدماء وجعلوها تتضمن فى محتواها أعمق معانى الاخاء والمساواة والرفاهية التى تؤدى بدورها الى تحقيق أركان السعادة من الحق والخير والجهل .

ومن تلك الصور جاءت دولة أفلاطون المثالية التى صورها عام (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) واليوتوبيا « لتوماس مور » (١٥٦١ - ١٦٢٦) وأطلانطا الجديدة « لفرنسيس بيكون » (سنة ١٥٦١ - ١٦٢٦) وكريستيا نوبوليس « لجوهان فالنتين اندريا » ومدينة الشمس لكامبانيا (سنة ١٥٦٨ - ١٦٣٩) والفالنستير « لشارل فورييه » وهذه جميعا صور لحياة انسانية فيها تقديس للحياة الروحية والاستقلال وإيجابية التحرر من النفوذ الاجنبى وتنظيم العلاقات بين الدول بغية الاستمرار فى الوقوف على ما توصل اليه العلم الحديث ومناهج التطور

وقد آمن كل هؤلاء بأن الفقر يجعل الناس كائنات لا قيمة لها والشراء الفاحش يحول أصحابها الى كائنات وقحة مغرورة لا أثر للعاطفة والأحاساس الإنسانية في نفوسهم وخلال تلك الدول المثالية لا يكرم انسان إلا بقدر ما يشقى في عمله وبقدر أهمية العمل تبعا للمجهود الذى يحتاج الى اتمامه والحكم فيها يكون عن طريق الاختيار الحر لفئات ذات ملكات والمأم بكافة فروع المعرفة .

وننتقي من تلك الأفكار دولة أفلاطون المثالية واليوتوبيا كأمشلة متكاملة لهذا الفكر الخالد وان كان فيها بعض الالتباسات والتعكر للواقع المادى للبشرية ولكنها فى حد ذاتها أفكار خالدة مازالت تعتبر مناهجها معايير لقياس مدى تكامل الحياة الانسانية بصورة عامة .

وقد جاء اليينا الفيلسوف افلاطون بدولته المثالية ووضع لها من الأسس والتعاليم التى تنظم العلاقات البشرية بين أفرادها مما يؤدى الى خلق مجتمع متكامل متناسق يتفق والطبيعة الانسانية فى مفهومها الخاص .

دولة افلاطون المثالية

تتكون تلك الدولة من بضعة آلاف من السكان لا يعلو أحد منهم فوق الآخر وانهم جميعا على قدم المساواة فى كافة أوجه الحياة بحيث يكون هناك تنظيم معين من حيث انجاب الأطفال حتى لا تأتى نفس بشسرية الى الوجود بدون أن يكون لها من القدر الكافى من الموارد الطبيعية التى تضمن لها حياة فاضلة سعيدة .

وقد قسم افلاطون الفئات الشعبية الى ثلاث فئات . . . الفئة الأولى وهى الطبقة العاملة التى تقوم بإنتاج المواد اللازمة للحياة من مأكـل وملبس وشراب وتقوم ببناء المساكن . ثم حدد الفئة الثانية وهى فئة المحاربين التى تقوم بحماية هذا الوجود الانسانى المتكامل ضد أى عدوان خارجى ثم هناك الفئة الثالثة وهى فئة الحكام ورجال الدين وتؤل اليهم مسؤولية تنظيم العلاقات بين الفئات الشعبية والتوفيق بين ارادتهم ومتطلباتهم الأساسية ونظرا لما لهذه الطبقة من حساسية وخطورة تبعاً لمسئوليتها فيتحتم على الفئات الشعبية الالتزام بصفات معينة بحيث تتوفر مظاهرها فى هؤلاء الحكام وان يتم تدريبهم بدقة وعناية مما يضمن حسن اعدادهم وتأهيلهم لتسلم أعباء تلك المسؤولية الحساسة .

وقد وضع افلاطون عدة مناهج يجب على جمهور تلك الدولة أن يلتزم بها فى سبيل الحفاظ على مظاهر دولتهم المثالية من كافة مظاهرها .

آثار الفضيلة الخالدة

استند افلاطون في تحديد معالم وآثار الفضيلة في أى مجتمع من المجتمعات الانسانية على حكمة جاءت على لسان اسناذه الفيلسوف سقراط « أن الفضيلة هي المعرفة » وتلك العبارات في تكوينها البسيط تحتوى على معان عميقة للوصول الى الخير والفضيلة التى يجب أن تستند على المعرفة والحق لن تنأى الا بالبحث الدقيق .

والأ تأخذ الموجودات من حيث الواقع المادى أو الروحى كفروض وقضايا مقدسة وانما يجب أن يشملها البحث والتمحيص فى ظلال التجرد من المصلحة الذاتية وانعدام البحوث من زوايا الأنانية .

التعليم

اختص افلاطون المناهج العلمية بأهمية خاصة . وجعل غايتها تستهدف المعرفة بفروعها المتباينة من أجل انشاء المجتمع الفاضل المثالى .

واهتم افلاطون بتربية النشء والجيل الصاعد الذى يعتبرون أوصياء المستقبل وتنهقد عليهم الآمال فى تسلم القيادة الجماهيرية وقد قسم المناهج العلمية من حيث غايتها العامة الى قسمين الاعداد المعنوى والاعداد المادى والذى ينفرد باعداد الاجسام الصحيحة المتكاملة السليمة .

الاعداد المهنوى الفكرى

اهتم افلاطون بالموسيقى وانما غريزة التذوق الايقاعى لما تعود بآثارها على السمو الفكرى والارتقاء بالمشاعر والأحاسيس مما يجعل هناك تذوقا للانسجام والتوافق الطبيعى الذى تنعكس آثاره نحو تذوق كل شىء فى الوجود متى كان بصورة متكاملة منسجمة وانما نجعل هناك قدرة فى النفوس البشرية المصقولة على ادراك أى اختلال فى تنسيق معين فيتقرب بذاته من كل ما هو متكامل وينوء على ما هو كربه ناقص . كذلك جعل هناك رقابة خاصة على نوع الموسيقى التى تقدم الى عامة الشعب خوفا من أن يتسرب اليهم ما هو ردىء أو يدعو للرزيلة والانحراف فيأتى بعواقب وآثار غير مرغوب فيها والى قد تفسد من احساسات العامة بدلا من السمو بها الى آفاق الجمال والاحساس بالتناسب .

أما بخصوص الأطفال الصغار فيجب أن توجه اليهم عناية خاصة وتربية قائمة على أسس سليمة بناء وعالية فيجب أن يتلقوا من القصص والأساطير القديمة ما ينمى فى نفوسهم روح الشجاعة والاقدام والتقرب من الفضائل وتنفىث فى نفوسهم مبادئ الحق وضبط النفس ، كما يجب أن نمجد تلك القصص الآلهية وتقرب النفوس منها وألا تكون بها فيجوات يمكن أن تنتقد منها قدسية الآلهة أو تستخر منهم ، وبهذه التربية الروحية السامية يكون هناك جيل صالح قادر على ادارة الفئات الشعبية من بعد كذلك يكون هناك تعداد ضخمة من جنود المستقبل على حماية بلادهم .

وهكذا يجب أن تستند مناهج وأساليب الدراسة على طرق حرة بعيدة عن وسائل الارغام والاجبار أو الضغط والتهديد وأن تنتهج بطريقة سلمية الغاية منها هو الوقوف على الميول الطبيعية والفطرة الشخصية التي يختص بها كل فرد دون الآخر وبهذا يمكن اكتشاف العناصر والخامات الطيبة والابتعاد عن أساليب الاستعباد والاذلال .

الاعداد المادى البدنى

بعد تلك النثرة من الاعداد الابتدائى للنفوس وتهيئة العقول لتلقى الدراسة التاريخية الحققة يبدأ الاعداد لتلقى الرياضة البدنية والتدريب العسكرى حتى سن العشرين وهذا لاعداد الجسم السليم الذى يحتوى على العقل السليم المتكامل ، وأن التدريب العسكرى يهدف إلى خلق الرجولة المتكاملة والاعتداد بالنفس وتحمل المسؤولية والشعور بالذات الانسانية وحب الفداء فى سبيل العقيدة .

وبين تلك المرحلة من الإعداد الفكرى والبدنى يكون هناك فترة لأختيار الطوائف الممتازة من الذين لديهم الاستعداد والفطرة لتلقى المزيد من العلوم المتطورة من حساب وهندسة وفلك وموسيقى حتى يتسنى خلق الاستعداد الفطرى للتفكير المجرد وسرعة التعرف على خصائص الموجودات ويستمررون هكذا حتى سن الثلاثين فيتلقون علوم المنطق الفلسفية بما فيها من اكتشاف اللاجناس والأنواع والفلسفة بلاشك تسمو بالفكر الانسانى المنطور نحو الإحساس بجواهر الموجودات من حيث العدالة والحق والجمال وبالتالى يقتربون بسلوكهم نحو الكمال ، ومن يتفوق منهم يبرز فى هذا المجال ويثبت قدرته على سرعة تجاوبه وتوفيقه بين المثالية والظروف الطبيعية فإنه يرتقى إلى طبقة الحكام المستقلين أو القضاة أو المشرعين .

ويتولى كل واحد منهم دوره فى الحكم كالتزام عليه وواجب لا مفر منه

وهذا الحاكم من الأفراد الذين تكن في نفوسهم الاحساسات العميقة بمعاني الحق والشرف والشجاعة وفهم من الذاكرة الواعية وتحرم عليهم الملكية الخاصة وإنما يتقاضون أجورهم من المواطنين ومحظور عليهم اقتناء المعادن النفيسة أو التحلى بها لأنها تعتبر من الملذات الدنيوية التي تنتهى بالفناء والعدم بينما يجب ان يتحلوا بما هو دائم مستمر وهي الصفات الأخلاقية السامية والقيم الروحية الخالدة .

المرأة في دولة افلاطون

كان للمرأة في جمهورية افلاطون تقدير خاص جعلها تتساوى في حقوقها مع الرجال وأن مابين الجنسين من اختلاف وتفاوت في الطاقة والقدرة على العمل هو اختلاف في الدرجة وليس في النوع أى أنه ليس هناك أعمال يختص بها الرجال دون النساء وأن الجميع على قدم المساواة أمام المتطلبات الأساسية للحياة .

وللنساء الحق في الاشتراك في الحروب والعمل والتعليم إلى آخر مراحله كذلك لها الحق في تسلّم زمام الحكم وقيادة الجاهير وليس هناك تفريق إلا تقسيم العمل بالنسبة لهن بما يتناسب مع قدرتهن على العمل وما لديهن من طاقات متوفرة تمكنهن من الاستمرار فيه والقيام باعبائه ومسئوليته حسب الاستعداد الفطرى لكل منهن .

تحديد الاختصاصات في مجال العمل

كان لأفلاطون آراء خاصة إيجابية وأخرى سلبية في مجال العمل لبعضها آثار عميقة لانزال العقول الحديثة تنادى بها وتعمل على تطبيقها في مجال التصنيع والإنتاج ، كما وإن له آراء أخرى سلبية في مضمونها لا يصح أن تصدر من فيلسوف كأفلاطون يدرك معاني الحق والخير ويدرك الغرائز البشرية والمتطلبات الأساسية للوجود الإنساني وحقوق الأفراد في التعبير عما يجول في نفوسهم وحقهم في تقرير مصيرهم ووضع النظم التي تنظم علاقاتهم وتوفق رغباتهم. فكيف تغاضى أفلاطون عن تلك الحقوق الإنسانية الخالدة في اعتلاء الساطة وكيف جرد عامة الحرفيين منها وجعلها حقا قاصرا على فئة الفلاسفة الحكام ، لهم الحق المطلق في وضع السياسات التي تترأى لهم واعتبر هذا أنجح السبل لتدعيم مظاهر الحق والخير بالنسبة للفتات الشعبية والتي ماعليها إلا الالتزام بها والرضوخ لأركانها وتعاليمها وليس هناك حق لهم للاعتراض عليها أو مجرد النقاش فيها فهذا ليس من اختصاصهم وعلى عامة الشعب أن ينصرف لأعماله ويترك السياسة لأصحابها المتخصصين فيها وذوى الكفاءات المعينة التي تؤهلهم لهذا العمل الحساس.

ولكن بجانب هذا القصور في فلسفة أفلاطون تجاه الموقف السياسي فهناك الآراء الإيجابية من حيث تقسيم العمل وتحديد الاختصاصات كل في مجاله وفقا لميوله ورغباته ومدى استعداد الشخص الذي هيأته له طبيعته ، وعلى كل شخص أن يقوم بالعمل ويتفرغ له . فهذا مما سيؤدي بلاشك إلى ازدياد المهارة الحرفية واتقانها . وعلى الدولة مسؤولية انماء هذا الاستعداد وتهذيبه على أسس علمية متقدمة حتى تصل كل موهبة إلى ذروتها بما يحقق انتاج متكامل متقن.

اشتراكية افلاطون

كانت نظره افلاطون العامة للفئات الشعبية هي نظرة انسانية تمجد الحقوق البشرية وتؤكد هذا التلاقى الغريزي بين الفئات الشعبية منذ الخليقة نحو استكمال مظاهر وجودهم على أساس تبادل الحاجات وعليه فليس هناك حق لأحد أن يستعبد آخر ويستغله ومن هنا جاء تقسيمه للفئات الجماهيرية في نطاق دولته فالحكام يدعون حراسا ومساعدين والرعايا يدعون المواطنين المنتجين (١).

والمعايير التي على أساسها يتم وضع كل فرد في مجاله واختصاصه هي ما عبر عنها افلاطون بالنبوغ والاستعداد الفطري والتي بواسطتها بين توزيع المواطنين على الطبقات الاجتماعية ومن أظهر نبوغا وتوقفا في مجاله قد يرتفع الى الطبقة التي تعلوه ، ومن يثبت فشله وانحرافه ينحدر الى التي تدنوه .

كما وأن أفلاطون قد أشاد الى حق النمو الحر للصفات الجسدية والعقلية ازاء المواطنين على السواء فكل له الحق في العلم طالما كان عنده الاستعداد والميل وطالما يبدي استجابة نحو مناهجه المتباينة — وكل فرد في جمهوريته له الحق في العلاج متى يتخلل الى جسده المرض ويعجزه عن العمل فكان هناك التزام نحو الأطباء للمحافظة على صحته وأبدان الجماهير كما لم تتجاهل الفلسفة الافلاطونية انحراف بعض الغرائز واندفاع البعض للتمرد على حقوق الآخرين فقد أوجب

(١) مشكلات فلسفية « للاستاذ عبده فراج »

افلاطون تخصص بعض الأفراد وهم من الطائفة الممتازة التي تتصف بالنبل والشرف والعدل والشجاعة ويقع على كاهلهم مسئولية الحفاظ على النظام وحماية الممتلكات الشخصية فوضع النظم والقوانين التي تسيطر بواسطتها على السلوك الانساني وتجبره على الالتزام بالقوانين الوضعية وعليها أيضا متابعة السلوك الجماعي لتهدب المنحرفين وتحافظ على الحقوق .

شيوعية افلاطون

« ان يكون لأحدهم زوجة خاصة به ، وهكذا يكون الأبناء على المشاع فلا يعرف الأب أبناءه ولا الأبناء آباءهم »

هكذا قدم افلاطون اقتراحا نحو زوجات الأوصياء المشرفين على أمور الدولة والمنظمين لها بعد أن تدارك بنفسه علة العمل في الأسباب التي قد تؤدي الى ظهور المحاباة وتفضيل الأبناء والوقوف بجانبهم حتى على حساب الفئات الجماهيرية وجعل هؤلاء الأبناء بحكم سيادة آباءهم سادة على باقي الأفراد يستغلون سلطتهم في ارتكاب الذنوب والمعصيات وعليه فقد حرم افلاطون على الفئات الحاكمة وعلى مساعديهم الملكية الخاصة من حيث الزوجات وجعلهم شائعات بين الفئات الحاكمة فلا يختص أحدهم بإحداهن وبهذا يكون أولادهم مشاعين .

أولا : عدم تعرض هذا الجنس الممتاز من الرجال والنساء للاتقراض والا نكماش فتصبح الاسرة الحاكمة أسرة واحدة ترتبط برباط الدم والروح فاذا ما شب هؤلاء الأبناء أصبحت نظرتهم لهؤلاء الحكام نظرة الابن لأبيه نظرة تملأها الاحترام والتقدير والولاء .

ثانيا : تجنب تولد الفرقة والأحزاب بين الفئات الحاكمة وتضارب الغايات والمصالح .

هذا ما عبر عنه افلاطون من حيث شيوعية الزواج أما عن الملكية فكان له رأى آخر يحرم أيضا الملكية على هؤلاء الحكام بينما يبيحها للفئات الشعبية فلما الحق فى اقتناء الأحجار الثمينة وتكديس الثروات طالما أنها مستقتنيها عن طريق العمل والتجارة وليس عن طريق استغلال الساطة والمركز كما هو الحال اذا ما سمح لفئات الحكام من استثمار الثروات، وتكديسها فما لا شك فيه أنها سوف تستند على حرمتها وعدم تعرض أحد لها بالنقد أو الحساب فتعبت فى الأرض فسادا وطغيانا لا يحدها أو يسيطر عليها شهواتها ومطالبها الخاصة . واستند افلاطون فى هذا الحرمان نحو الفئات الحاكمة على حسن التربية الاخلاقية التى تسبق اعتلائهم لمقاييد الحكم ومدى ارساء القيم الاخلاقية والمبادئ السامية التى تهذبهم وترقى بنفوسهم الى مستوى فكرى يدركون أن للحياة قيمة أسمى من اقتناء الثروات وتكديسها .

هكذا حدد افلاطون معالم وأبعاد جمهوريته الفاضلة التى تتلخص فى اعلاء مثل عليا وجعلها غاية مذكودة يتطلع ويسعى اليها كل فرد على السواء ومن خلال الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها بطبيعته وخلال تلك الحياة يقدم كل فرد أقصى ما يستطيع أن يقدمه الى أبناء مجتمعه من جهد وطاقة .

وعلى رأس تلك الدولة توجد فئة ممتازة لها من المواهب والاستعداد المتقدم ما يؤهلها للتحكم فى مقدرات اخوانهم فى الدولة وهى الفئات العاملة وتلك الفئة الحاكمة يجب أن تربي تربية فاضلة وعلى أسس متقدمة تسمو من خلالها القيم الروحية عن المظاهر المادية حتى يكونوا أقرب الى الحق والخير والجمال وهى خير ما تصبو اليه النفوس البشرية .

المدينة الخيالية لتوماس مور (يوتوبيا)

عرض توماس مور صورة لمدينته الخيالية عن رحلة بحرية قام بها ملاح برتغالي ذو ثقافة يونانية واسعة يدعى رافائيل هيثلوداي .

وتشاء الأقدار أن تقف سفينته على جزيرة « يوتوبيا » التي تركت في نفسه آثارا عميقة عن مدى التقدم والازدهار الذي حققته تلك المدينة ذات الشكل الهلالي وتبلغ من العرض مياين وتتكون من أربع وخمسين مدينة تتفاوت المسافات بينها من أربعة وعشرين ميلا ولا تزيد المسافة بينها عن مسيرة يوم كامل وتتوسطها جميعا العاصمة « أموروت » .

والزراعة هي حرفة أساسية لسكان تلك المدن لأنها أساس الصناعة في مدينة مور الخيالية فعلى كل فرد أن يلم باصول الزراعة إذا كان من سكان المدينة بغية تضامنهم جميعا لا سيما في فترات الحصاد على جمع الحبوب وغيرها من المحاصيل الزراعية .

والانتاج الزراعي في تلك المدينة الخيالية يتم وفقا لتخطيط معين بما يتفق وحاجة المجتمع وكل فرد فيها يختص بعمل معين وتقسم ساعات النهار على أساس ست ساعات للعمل وثمان ساعات للراحة وباقي اليوم يقضيه الأفراد وفقا للميول الشخصية ، وليس هناك مجال لاستخدام الآلات المتقدمة في مقابل أن يبذل كل من الأفراد أقصى طاقته ومجهوداته في تأدية الأعمال القائمة بها .

ويتم تبادل المنتجات بين أبناء المدن عن طريق ممثل لكل أسرة يتوجه الي أحد الأسواق المقامة في مناطق متفرقة من المدينة تجميع فيها المنتجات كل على حدة ويأخذ كل ممثل أسرة ما تحتاج اليه أسرته بدون ثمن نقدي وبدون أن يأخذ شيئاً فوق طاقته الاستهلاكية وليس هناك بطبيعة الحال حاجة لاقتناء النقود التي هي مصدر الخير والفضيلة ، ومصدر كل شر وأساس كل رزية كما وأن هناك نظاما خاصا للمساكن دقيق في بنائه رائع في تصميمه مزود بكل ما يتوفر لها مظاهر الجمال والابداع .

وتلتي الأسرات في ساعات الطعام ليستمعوا الى بعض المقالات التي تتعلق بالآداب والفنون الرافية والاعزاز بالفضائل الحسنى وفي أثناء وجبات العشاء تعزف الموسيقى أنغام شجية في جو يتشبع بأنواع البخور بحيث يشمل السرور والسعادة الجميع .

ونظام الحكم فيها نظام ديمقراطى قائم على انتخاب فرد من كل ثلاثين أسرة وكل عشرة من هؤلاء الرؤساء يتم انتخاب رئيس منهم وهؤلاء الرؤساء ينتخبون أميرا لهم مدة الحياة (١) .

ولكن في الأمور الهامة تعرض تلك المشاكل على أفراد الأسرات لإبداء آرائهم بخصوصها وعليهم متابعة السلوك الجماعى ومنع المنحرفين من الاستمرار في انحرافهم بل كل واحد منهم يؤدي واجبه بحمد واهتمام .

وإذا ما انتقل فرد من أفراد اليوتوبيا الى مكان آخر يجب أن يحصل على جواز سفر يخول له حق المرور بشرط اذا ما ازدادت مدة بقاءه في مدينة أخرى غير مدينته عليه أن يقوم بنفس العمل الذى تخصص بقيامه .

(١) الحركات الاشتراكية (هارى وليدل)

والتعليم فيها له اهتمام خاص لا سيما علوم الحساب والهندسة والأعمال
الزراعية والقراءات المفيدة .

وهكذا تكون غاية البوتوبيا توفير السعادة والرفاهية والاستقرار النفسى
والمادى لسكانها ومنع الأفراد من ارتكاب ما يجلب التعاسة والحزن لأفراد
آخرين .

ثم ننتقل بحديثنا من مجال التفكير الاشتراكى الخيالى الى المحاولات المادية
التي قام بها بعض من اشداد لهم التاريخ بزعم الفكر الاشتراكى وأول من أرسوا
مناهج تفكيره المادية مع مسايرة التطور السريع للرأسمالية وآمنوا فى أعماقهم
بأن التنظيمات المعقدة لتنظم الرأسمالية ما هى إلا عقبة فى سبيل تحرر الانسان ، كما
وانها اذا ما تشعبت فى شتى الميادين تتبلور آثارها على هيئة أزمات اقتصادية
متلاحقة ويكون هذا على كاهل الطبقات العمالية وعلى حساب تدهور القيم
الاخلاقية .

ومن هنا جاءت حتمية ازالتها وتخطيطها ليحل محلها التنظيم الاشتراكى فى
كافة مظاهر الحياة حتى يشفى الانسان من بؤسه ويرتقى بوجوده من الفوضى
التي تستعبد به وتسوده ومن هؤلاء القادة منكتفى بالتهرض لكل من الفكر
الاشتراكى لسان سيمون و روبرت اون و جون ستىوارت ميل ، ثم
بالاشتراكية الفابية .

آراء سان سيمون الاشتراكية

كان لآراء سان سيمون عميق الأثر فى الفكر الاشتراكى عامة من حيث أنه
استهدف فى فلسفاته الاجتماعية والاقتصادية الارتقاء بتلك الفئات المحرومة التي
تئن تحت مظاهر البؤس والاستغلال والحرمان .

فقد اتجه سيمون باعتبار أن الصناعة تنصدر مظاهر الوجود البشرى من حيث كونها المصدر الوحيد لكافة الثروات والمصادر المادية اللازم توافرها من أجل الرخاء والسعادة والكمال .

ومن هنا اتجه بتفكيره نحو تطوير النظم الاجتماعية والوصول بها الى آفاق الكمال والتناسق ووضع لهذا التنظيم بعض المفاهيم والأركان التي يمكنها الوصول بالفئات الاجتماعية الى تلك الغايات التي تتطلع اليها الانسانية عامة .

ومن ثم ينبغي ازالة كافة العقبات القديمة والتي تعبر مترسبة ومتوارثة من قبل النفوس التي تحول في مضمونها دون التقدم المنشود ، وهذا لن يتحقق في مفهوم سيمون الا عن طريق التقدم بالمعرفة والارتقاء بمفاهيم الفئات العليا وارساء القيم الثورية في نفوسهم لتمكينهم من الخروج عن النظم الاقطاعية والنبالة المتوارثة الى النظم الصناعية العلمية المتقدمة .

وينبغي كذلك اخفاء الطبقات والقضاء على اسطورة الفئات العاطلة في المجتمع وذلك عن طريق تكاتف الجهود لانشاء رابطة عالمية تضمن العمل للجميع وتكفل لكل عامل أن يحصل على ما يستحق ازاء عمله ، وكنتيجة لوجود العمل المضمون يتعين أن يعمل الجميع فيكون الكسول طفيليا ، ثريا كان أم متسولا ولا يمكن أن يقبل عند الجماعة لأنه يأكل ما ينتجه الآخرون فهو بهذا لا يزيد على كونه لص (*) .

وهكذا فالمساواة في مفهوم سيمون تعنى بأن كل فرد يجب أن يحصل من المجتمع بقدر ما يبذله من جهد وطاقة وبهذا تصبح كل الفئات الاجتماعية تعمل في ظل تضامن اجتماعي هدفه الرفاهية والرخاء ووسيلته انجاز الأعمال

(*) الحركات الاشتراكية (هارى وليدر)

بطرق سامية ذات فاعلية وإيجابية .

وعن الملكية الفردية فقد شدت إليها أفكار سان سيمون واختصت بجانب كبير منها واستهدفت تنظيمها بطرق تخدم في النهاية الصالح الانتاجي العام وانتهى الفكر السيمونيزم (*) إلى أن تلك الملكية التي تأتي للفرد عن طريق المهدفة والوراثة ويصبح بهذا تلقائياً يتحكم في ادارتها والاحتفاظ بهائد أرباحها حتى ولو كان هذا الربح الفائض على حساب الفئات العاملة بحرمانها وبؤسها وشقاءها ، فيجب أن تبدأ المساواة بين الفئات من نقط متساوية وبداية واحدة من حيث المستوي المادي والفكري ويصبح بعد هذا اكل نصيبه حسب طاقته وعمله ، وتتحقق عدالة التوزيع المتساوية للملكية .

ثم يلي هذا اتباع أنجح السبل التي يمكن استخدامها من أجل تسيير عجلة الانتاج بحيث تؤول ادارتها إلى أيدي ذات كفاءة وخبرة حتى يضمن بذلك أن يكون هناك توازن فيما بين توزيع عمليات الانتاج في مظاهرها المختلفة ، فلا يكون هناك تبذير في أحدها على حساب قصور في الأخرى ، وانما هناك تنسيق ونظرة عليا بين حاجات الاستهلاك وموارد الانتاج المتوفرة .

وهذا ان يتأتى بمفهوم السيمونيزم إلا باستيلاء الدولة على وسائل الانتاج وتوزيعها تبعاً للحاجات ووفقاً لسياسة عليا سبق دراستها وتخطيطها بما يتفق والصالح العام ، وبهذا يتم منع الاحتكار الفردي لوسائل الملكية الانتاجية والتي يستتبعها احتكار للجهود الانسانية التي لا تملك إلا جهودها وطاقاتها للعمل في سبيل لقمة العيش .

ومن ثم فيمكننا الانتهاء بتلخيص آراء (سان سيمون) واتباعه فيما يلي :

(*) السيمونيزم هو الآراء التي انتهى إليها سان سيمون وتوارثها فيما بعد تلاميذه واتباعه وعرفت بمذهب سان سيمونيزم .

أ - الدولة هي التي يمكن أن تقع على كاهلها أعباء تنظيم عمليات الإنتاج وخلق اتزان في كافة القطاعات ووفقا لاحتياجاتها .

ب - القضاء على الفوضى في عمليات الإنتاج والاستهلاك .

ج - منع استغلال الانسان لأخيه الانسان .

آراء روبرت أوين الاشتراكية

يعتبر روبرت أوين من مؤسسي النظام الاشتراكي في انجلترا .

وقد جاء بتعاليمه ومناهجه وفلسفاته الاجتماعية والاقتصادية في ظروف أدت فيها الثورة الصناعية الى :

أ - تكديس الثورات في أيدي رجال المال .

ب - انتشار البؤس والمرض والبطالة بين الفئات العاملة ومن هنا كانت فلسفته تؤمن بحقوق تلك الفئات وتتطلع الى تحقيق مجتمع يشعر فيه كل فرد بإنسانيته وكيانه ويحصل على كافة حقوقه واحتياجاته من قبل المجتمع .

وكانت فلسفة أوين تستهدف تحقيق السعادة للإنسان وتؤكد تلك الحقيقة المعبرة عن هذه الانقذات الاجتماعية بصفة عامة نحو تحقيق أعمق وأدل معاني السعادة لأكبر قدر من الأفراد ولكنه استدل على انه تبعا لموضوع الانسان بفئة تحيط به ويعيش في نطاقها ويتعامل مع ابنائها فهذا مما يؤثر فيه ويجمع له يختص بصفات مهيمنة أما من حيث السلوك الطيب أو الشرير .

وعليه فهو يهتم اهتماما بالغاً بمظاهر البيئة الاجتماعية والتي تتبلور في عدة نقاط لها أعمق الاثر في الحياة الانسانية وأخذ يتعرض لكل منها من حيث :

أولا - التعليم يجب أن يكون إجباريا عاما لكافة الفئات بحيث يبدأ بتعليم الأطفال المبادئ الأخلاقية السامية وارساء مبادئ التعاون والتضحية في نفوسهم حتى يتمكن هذا المجتمع من خلق النفوس المتكاملة السامية البعيدة عن مظاهر الانحلال والسلبية والتي لا تجد طريقا أو ثغرة يمكن أن تتخلل منها .

ثانيا - يجب توافر مظاهر الثراء في احضان هذا المجتمع حتى ترتقى احساسات الفئات ويسمو وجودهم ونقضى على هذا المجال الخصب الذي تنمو فيه نواة كثير من الشرور والانحرافات إلا وهو مجال الفقر والحرمان .

ثالثا - يجب توفير العمل لكل من يطلبه وذلك عن طريق انشاء مكاتب العمل التي يتقدم اليها كل محتاج وفقير لتمده بالعمل الذي يحميه من وائلة التشرد والضياع .

وقد حاول بالفعل روبرت أوربن تحقيق أحلامه هذه وذلك بأن قام بإنشاء مستعمرة « نيو هارفى » وحاول من خلالها تنسيق العلاقات بين أبنائها وتوفير كافة متطلباتها واقامة النظم التعليمية والرعاية الصحية حتى يخلق بهذا المجتمع نوما جديدا يقوم على أسس فاضلة توحد المصالح وتزيل كافة دوافع النزاع والصدام بين الفئات ولكن تلك المحاولة لحق بها الفشل وداهمه اليأس لأنه ولا شك قد قام بتطبيق مبادئ المساواة المطلقة بين الفئات من حيث الكفاءات وتنكر للجوافز وقيمة الجهود الانتاجية بين الفئات .

وهكذا فهم لحق بهذا الفكر المثالى من فشل مرة بعد الاخرى إلا أنه قد ترك آثارا فكرية انسانية خالدة بتوجيهه انتباه الفكر الى بشاعة الاستغلال الصناعى وانجبه كذلك الى تمجيد الطاقات البشرية المنتجة ، والارتقاء بوجودها . ونادى بأن انطلاق الفئات من وراء الربح تعد فى مضمونها خطيئة تتسبب فى تدهور الجنس البشرى عامة .

وعالية فكان روبرت أوين ينشد، المجتمع الذي يمرر الانسان من اعبائه وعقده لا ليثقل على كاهله باعباء جديدة.

آراء جون ستيوارت ميل الاشتراكية

يعتبر جون ستيوارت ميل من قادة المفكرين الاقتصاديين الذين فتحوا آفاق الفكر للاقتصاد الموجه والاشتراكية وان كانت تدعو الى الحرية الانتاجية والمنافسة بصفة عامة وهذا ما يقربه من المدرسة الكلاسيكية حيث الاقتصاد الحر. ومن ثم فبحال بحثنا هذا لا يتسع لعرض كافة آراء ميل الاقتصادية وانما سننتقي منها ما يخص بحثنا هذا من حيث القيم الاجتماعية الاخلاقية التي نادى بها هذا المفكر.

وكانت آراء ميل تتعارض في مضمونها مع الفكر الاقتصادي الذي كان ينادى بالحرية الاقتصادية من حيث قوانين الانتاج ونظم التوزيع ولكننا نجد ميل وهو يؤكّد حتمية التوجيه الاقتصادي من حيث ضرورة توزيع عائد الانتاج بحيث يعود على تلك الفئات التي تبذل جهودها وطاقاتها من أجل تسيير عجلة الانتاج.

وقد أصاغ ميل في مبادئه فاعلية التنافس وأثرها في التنمية الاقتصادية وأكد قانون الوازع الشخصي ولكنه وضح تلك النقاط في الاسترسال نحو ابراز محاسن التعاون وآثاره الخالدة من حيث مدى تقربها من المثل العليا الاخلاقية، وبالتعاون تتمكن الانسانية من القضاء على مظاهر النضال والتصادم الطبقي وتدفع الفئات نحو العمل المتضامن الهادف الى الصالح العام والرخاء المادي والروحي في نطاق وجودهم وقد أوجد ميل علاقة وثيقة بين القيم الاخلاقية ومبدأ تحديد النسل وأعتبر أن الأفراد الذين لا يستطيعون أن

يتحكموا وينظموا بين عملية تحديد النسل وبين الموارد المادية المتوفرة لهم بحيث لا يتأتى إلى الحياة فرد إلا وكان له القدر المالى الذى يمكنه أن يحقق له حياة سعيدة كريمة تسمو بوجوده عن مظاهر البؤس والحرمان ومثل هؤلاء الأفراد المتصفين بالقصور فى أبعاد التفكير والتقدير يجب اعتبارهم خارجين عن القيم الاجتماعية الاخلاقية ويجب ان يعاملوا معاملة المنحرفين والخارجين عن القانون .

وهكذا يمكننا الاستدلال عن الغاية التى كان يستهدفها « جون ستيوارت ميل » من وراء تلك النظريات والمبادئ وهى ان الارتقاء بالعمل الانسانى عامة ينتج عنه لاشباع حاجاته وغرائزه باتباع سلوك يتصف بالرقى والسمو ويقترن بالقيم الاخلاقية والمعايير الانسانية .

الاشتراكية الغائية

وبصدد الاشتراكية الغائية سنحاول تلخيص أهم أهدافها وما ترمى اليه من غايات عليا خالدة .

فالاشتراكية الغائية تهدف الى بناء المجتمع بما يتفق والقيم الأخلاقية السامية والمثل العليا المتمثلة فى الأخاء والتعاون والحب وتنتهى لها سلوكا خاصا يقودها نحو تلك الغايات ويتصف بالتدرج كما أنها اتخذت لها الشعار الملائم التالى « يجب أن تنتظر اللحظة المناسبة على أكثر ما يكون الصبر مثلما فعل فاييوس وهو يحارب هانيبال ، وان كان الكثيرون قد انتقدوا تأخره ، ولكن عندما يحين الوقت المناسب يجب أن تضرب بشدة كما فعل فاييوس والا كان انتظارك هباء ولا جدوى منه » .

والفكر الفاني فى الواقع لا يتبع مدرسة فكرية معينة وانما يستلهم منها حجة

وفقا للواقع ثم يقوم بتطويرها وفقا لما يراه من الصالح العام . وتهدف الاشتراكية الفايبة نحو تنظيم المجتمع وذلك بتحويل الملكيات من تحكم الفردية والطبقية الى سلطة المجتمع حتى يضمن بذلك ادارته من أجل صالح المجتمع ، وعلى هذا النحو يتمكن من تحقيق مظاهر العدالة وضمان توزيع المزايا الطبيعية المتوفرة على كافة الفئات بتباين مستوياتها .

وكان تعرض الفايبة للملكية الزراعية من حيث حتمية القضاء على الملكية الخاصة للأرض وعلى ما كان يستتبعها حينئذ من استئثار صاحب الأرض على منتجاتها اما بصورة مباشرة أو بصورة ربح (١) مقابل التنازل عن الامتيازات التي تتمتع بها تلك الأرض .

وفي مقابل الملكية الزراعية تعرضت الفايبة الى ادارة رأس المال الصناعي وذلك بابرار المدى البعيد والآثار المثمرة التي تعود بادارة الأموال في ظل التأمين وتحويل استثمار الأموال التي كان فائضها يعود على أصحابها الاثرياء لتصبح انمطا منسقة منتظمة ، وتكون تلك التأمينات للمرافق العامة الأساسية في البلاد وان كان من الممكن تعويض أصحابها في مقابل ما يؤخذ منهم وبهذا تخفف الطبقة العاطلة بالوراثة التي تجنى ثرواتها على حساب شقاء الكادحين ويتحقق تكافؤ الفرص مع أكبر قدر ممكن من المساواة .

وكانت الدعوة للاشتراكية الفايبة تستند على نشر الآراء واجراء التغييرات الاجتماعية والسياسية التي تستهدف ارساء المساواة بين الحقوق المدنية وتساوى بين الرجال والنساء خلالها ، وذلك بفتح آفاق المعرفة وتحديد معالم العلاقات بين الفرد والسلطة من كافة مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

(١) الربح .. هو ذلك الجزء من الأرض الذي يدفع للمالك لقاء استغلال الطاقات الاصيلة الحالدة المترتبة .

ومن ثم فيمكننا الانتهاء بأن الاشتراكية الفابية كانت غايتها إزالة
المتناقضات بين السلوك والمبادئ والقيم السامية التي تعتبر في مضمونها منبع
الكراهية السافرة التي تولد الفرقة والانشقاق والتصادم بين الفئات البشرية
خلال المجتمع الواحد .

نبذة عن الشيوعية الماركسية

انتهى التفكير الماركسي على أن العامل الاقتصادي هو أساس التاريخ ،
وتقول النظرية الماركسية أن من الواجب عدم اعتبار الطبيعة والمجتمع مجرد
تجمع طارئ لظواهر منفصلة ومعزولة وإنما العكس هو التعبير الصحيح عن
هذا التلاق ، فجميع الظواهر الطبيعية والاجتماعية مترابطة ومتشابكة ويقرر
الواحد منها الآخر . ونجد التعبير عن هذه العلاقة العميقة الجذور في قوانين
التطور الاجتماعي والطبيعي كما وأن القوانين الاقتصادية هي أساس التطور في
المجتمع من حيث دورها في تحديد نوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين
الناس ، أي العلاقات في مجال الانتاج والتوزيع والمقايسة والاستهلاك .

ومن هنا جاء تعبير لينين بأن الاقتصاد السياسي لا يعني على الإطلاق
الانتاج وإنما يعني العلاقات الاجتماعية بين العاملين فيه ، وبعبارة أخرى أن
الاقتصاد السياسي هو علم تطوير العلاقات الاجتماعية ، الانتاجية أي الاقتصادية
بين الناس ، وهو يوضح القوانين التي تنظم انتاج الثروة المادية في المجتمعات
الانسانية في مختلف مراحل تطورها .

ومن هنا يكون الاقتصاد السياسي هو أساس التطور الاجتماعي ومن
خلال هذا التعريف نستدل على أنه علم تاريخي من حيث اختصاصه بسرد
تطور المجتمعات منذ مراحل وجودها كما وأنه يعبر عن مدى حساسية هذا العلم
من حيث اقترانه بمصالح الفئات البشرية الحيوية .

الأساس النظري للماركسية

وقبل أن نتعرض لبحث الأساس النظري للماركسية سنحاول بمعرض موجز لآراء هيجل باعتبارها كانت فلسفة تأثر بها ماركس وتحمس لأركانها وأعطت تمييزاً خاصاً لكل ما قدمه ماركس في الفكر الاجتماعي .

فلسفة هيجل

كانت الفكرة السائدة حتى مطلع القرن التاسع عشر هو أن العالم والنظم الاجتماعية لها ميزة الثبات والاستقرار والأزلية ولكن بحلول فجر القرن التاسع عشر أخذت تلك الفلسفة في الاضمحلال تدريجياً لتجلى محاسنها فلسفة أخرى متطورة تنبأ بالتغير التدريجي والتطور الإنساني .

وتصدر هيجل خلق هذا المنطق الجديد وكانت الجدلية هي جوهر منطقها وانتهى بأن :

« التناقض أو التضاد أو النقي هو مصدر كل حركة وحياة ، وأى شئ لا ينطوى على تناقض فإن يتمتع بالحركة والقوى والفاعلية » .

وبالتالى أخذ ماركس في بحث تلك المظاهر المتناقضة باعتقاده أن التقدم يبدأ منها

النظرية الماركسية

تقوم النظرية الماركسية على ثلاث قواعد أساسية :

١ — التفسير المادى أو الاقتصادى للتاريخ .

٢ — فكرة الصراع الطبقي .

٣ — نظرية القيمة .

أولا : التفسير الاقتصادى للتاريخ

وهو تعبير بأن التاريخ الاقتصادى باعتباره يمثل تاريخ العلاقات الاقتصادية المتداولة بين الفئات البشرية ونوع التعاملات فيما بينهم ووسائل الانتاج والتوزيع وهذا فى مضمونه سيجل يحوى فى مسطوره تصويرا وصياغة لتطور المجتمعات وتشكيل علاقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية (١) .

والمقصود هنا بمادية التاريخ هو اعتباره العامل الرئيسى الذى يسهم فى تطور المجتمع الذى سيكون العامل الاقتصادى أى النمط الذى تسير عليه طرق التعاملات والتبادلات فيما بينهم ، وعليه فان طرق الانتاج فى الحياة المادية هى التى تحدد الطابع العام لتطور الحياة الاجتماعية وتشكيلها - فكل نمط من طرق الانتاج المتداولة يكون له طراز خاص من العلاقات الاجتماعية .

(١) الحركات الاشتراكية « هارى . و . ليدر » .

ولم ينته كل من ماركس وانجلز بجعل العنصر الاقتصادي فحسب هو الأساس العام للتطور الاجتماعى وإنما باعتباره الأساس ويكون الهيكل مكونا من الأشكال القانونية والانعكاسات التى تخلفها حركات الصراع الفكرى والنظريات السياسية والفلسفة المتداولة وكذلك الفنون والآداب فكلها تؤثر وتتأثر بالعوامل الاقتصادية .

ثانيا : الصراع الطبقي

لقد افترض ماركس أن الثورة يتحتم وجودها تبعاً لوجود تناقض طبقي يؤدي الى الصراع وان الطبقة العاملة يزداد حالها سوءاً نتيجة استغلال الطبقة البرجوازية لمقدرات وحقوق الكادحين .

وان هذا الصراع ان يزول إلا حينما تتحقق سيطرة الفئات العاملة (البروليتاريا) على أدوات الانتاج والقضاء على الملكية الفردية نهائياً وبالتالى يتحرر المجتمع من كافة أنواع الاستغلال والتمييز والصراع الطبقي .

نظرية القيمة

لقد وضع ماركس نظرية القيمة وعبر عنها فقال « ان العمل هو الأساس الاجتماعى المشترك فى جميع السلع ... والسلعة تكون لها قيمة لأن العمل الاجتماعى يتبلور فيها وكبر قيمة الساعة أو قيمتها النسبية انما تتوقف على مدى كبر أو صغر ذلك الأساس الاجتماعى الذى يدخل فيها أو بعبارة أخرى على القدر النسبى من العمل اللازم لانتاجها ، وعلى ذلك فالقيم النسبية للسلع انما تتحدد بكميات العمل التى تبذل وتتحقق وتتجسد فى كل منها (١) .

(١) ماركس — القيمة والتمن والربح

وإذا ما حاولنا تحديد القيمة لساعة من السلع يتحتم علينا أن ندرك مراحل العمل المختلفة التي تمر بها الساعة حتى تخرج إلى المستهلك ونتيجة تلاعب البرجوازيين في تلك القيمة والاستيلاء على فائض قيمتها التي هي من حق الطبقة العاملة (البروليتاريا) وهذا ما يتسبب في خلق الاضطراب وعدم التوازن بين القدرة على الانتاج والقدرة على الاستهلاك مما يخلق الأزمات والبطالة بين العاملين .

النقد الفلسفي للماركسية

قبل أن نتعرض للنقد سنحاول تلخيص ما انتهت إليه النظرية الماركسية من حيث :

- (١) جميع الدخول بخلاف الاجور ليس لها ما يبرر وجودها .
- (٢) لا مفر من الغاء الملكية الفردية بصفة عامة .
- (٣) لن تتحقق المساواة وازالة المتناقضات الموجودة في المجتمع إلا بالثورة .

أولا : نقد مفهوم الثورة

ان اصرار ماركس على فكرة الصراع الدموي وحمامات الدم لم تصبح ضرورية من أجل تحرير الشعوب وتخليصها من تناقضات قد تكون فيها .

فمن الواضح ان الانسان لا يشور إلا عندما يحول بخاطره وأعماقه تساؤلات لا يجد لها حلا يخلق في نفسه الاستقرار فيثور لذلك . وهكذا فهو يشور بناء على جهله لأنه اذا ما تعقل يجد لها حلا من خلال اتزان تفكيره وتعقله لأن الثورة النفسية تستهدف المعرفة والاصلاح ولكن الثورة المادية، وهي

ما ينادى بها ماركس ، هي ثورة التخريب والتدمير والجهل الصادر عن النفس البشرية ولكن لو تأنى الانسان وأدرك قواه العقلية والنفسية والروحية لانتهى الى ادراك ان الهدوء والأتزان والتصرف بعد التعقل هي من دلائل الارتقاء والنظام - ثم ضد من يثور الانسان ويخرب ؟ نجد أنه يثور ضد نفسه وضد أخيه الانسان ، بينما هناك تجارب كثيرة للتحويل والانطلاق نحو مجتمعات الرفاهية والعدل ، الى الاشتراكية والمساواة وتعتبر الجمهورية العربية المتحدة رائدة في تلك التجارب في مراحل انطلاقتها السامية .

ثانيا : الصراع الطبقي

تدعى الماركسية بأن هناك طبقتين تتصارعان :

الطبقة التي تملك والطبقة التي لا تملك وانه يجب القضاء على الطبقة التي تملك وتكون بهذا دعوة جماعية نحو فردوس منشود في الفكر الماركسي ولكنه فردوس مخضب بالدماء والاضطرابات، وينتهي الحال بالأفراد الى الانسياق تحت حكم الجلاء ، فيفقدون بذلك شخصيتهم وكرامتهم ويتحجر تفكيرهم .

وتنتهى الحال كما انتهت به الشيوعية في بعض البلاد طبقة ممتازة تتمتع بسيادة شاملة على كافة السلطات وعلى جميع مرافق الدول وتظفرون سواها بجميع خيرات الدولة - يعيش أفرادها في عزلة عن باقي الشعب لا يتخطى أبوابهم الا من سار في ركابهم وآمن بمعتقداتهم ويعيش باقي الشعب في رهبة مستمرة تحت قبضة الحزب لا يتمتع إلا بألفاظ رنانة جوفاء عن الحرية والمساواة .

ثالثا : مفهوم الاشتراكية

عندما تنتجه الماركسية للتنكر لحق الملكية وحق التوريث فهي بهذا تنكر حقائق نفسية تتعلق بالفرد ذاته وتكمن في أعماقه منذ وجوده الأول كما وانها

تتذكر لغرائزه وحقوقه .

فماذا سيحل بالفرد ؟ لا شك أنه سيصبح ترس في عجلة الإنتاج ومجرد ورقة من شجرة كبيرة إذا أصابها الذبول وزالت مصادر استمرارها وحيويتها سقطت واستمرت الشجرة في نموها الطبيعي هذا هو حال الإنسان في حالة حرمانه من غريزة الملكية وتسيخيره فيما توجهه إليه الدولة دون أن يكون له من حافز أو رأى شخصي يشعر عن طريقه بأدميته وكيانه كإنسان .

الشيوعية والدين

عندما انبثق الفكر الماركسي يعبر عن مذهب فلسفي يعتمد على جملة مبادئ نراه قد وقف من الدين على العموم وقفة هي في مضمونها تعبر عن عدم الرضاء واعتباره عثرة تعوق التقدم والانطلاق بصفة عامة .

فمنذ أن قامت تلك الفلسفة الماركسية على أساس مبدأ النقيض أو التطور وذلك من حيث خضوع كل كائن مادي أو قيم ومبادئ روحية الى ظاهرة التطور والرقى عما هو أدنى الى مراحل عليا فاخذت تدعى بأنه لا يوجد هناك خلود للقيم الاخلاقية في الحياة الانسانية حيث أن الخلود يتعارض والطبيعة المتطورة . بينما من دعائم الرسائل السماوية هي خلود تعاليمها وقيمها وان كانت لها من المرونة ما تتفق وتطور العقل البشري إلا أنها لا تتحيد عن مضمونها الحقيقي وغايتها الراسخة المتكاملة .

ومن هنا وقعت الماركسية في أخطاء هي في الواقع تقط سوداء في تاريخها وذلك بأنها أطاعت صفة العمومية والشمول على كافة القيم والمبادئ فعلى سبيل المثال نجد أن القيم التي تعبر عن الحرية والعدل والمساواة والأخاء والحب ، هي خالدة خلود الانسانية ومقترنة بوجودها المتكامل الهادف الى السكال ، فالقيم

الانسانية كانت وتستظل هي المستويات العليا في السلوك الانساني ، والنهايات
المظمية لتطور البشرية في انسانيتها .

وبالرجوع الى تعاليم القرآن الكريم نجد فيه من قيم ومفاهيم لازالت
نبراسا تهتدى به الانسانية وتضيء لها جوانب حياتها المنظمة المعقدة ، فهي قيم
لازالت خالدة سامية حتى يومنا هذا لم يصعبها الفتور أو الاضمحلال وانما تزداد
قوة وفاعلية كلما تعمق الانسان في معانيها وتدارك فاياتها الكريمة .

ومن هنا يتضح الفارق الشاسع ما بين الدين والشيوعية من حيث أن دعوى
الأول تسايرة الطبيعة البشرية بوجودها المادي والروحي فتقربه من الأعمال
الصالحة والتساخي الانساني بينما نجد الشيوعية دعوة الانقلابات والثورات الحمراء
منهجها تقييد الانسان وانعدام كرامته وحرية فيه أجدر بحياة الحيوانات
وأبعد ما تكون عن الصفات الانسانية الخالدة . ولا يتسع مجال بحثنا هذا لحصر
نقدنا من حيث القومية والسلطة والمساواة والمستقبل الانساني بعنفه عامة
ولكننا نذمى بأنه لا يمكن أن تكون الشيوعية فلسفة متكاملة قائمة بذاتها أو
تعبر عن الكيان الانساني لأنها بذت نفسها على المتناقضات لتخرج لنا متناقضات
أخرى في كافة مظاهر وجودها وتعاملاتها وبذلك لم تكن إلا مجرد تعبير عن
صراع المفاهيم البشرية التي أوجدها الانسان نتيجة جهله وقصور تفكيره .

مدخل للاشتراكية العربية

الاشتراكية العربية والوجود الانساني

من خلال تلك الفصول السابقة نستدل على أن الانسان ما هو إلا كتلة من
المشاعر والأحاسيس تصرخ في أعماقه وتتضارب فيما بينها وتتسبب له في آلام
مبرحة فتهكس آثارها عليه إما في صورة مادية أو أخرى نفسية .

والإنسان تتصارع في داخله مفاهيم متعددة يسعى جاهدا لتحقيق ما يصبو إليه نفسه من آمال وآفاق ، وخلال تلك المحاولات تتحكم فيه عسدة غرائز ونزعات تلزمه تحقيق مآربها وغاياتها . وكما سبق أيضا أن استدللنا على أن تلك الغايات التي يسعى إليها الإنسان ليس لها حدود مطلقة أو نهايات ثابتة وإنما هي تتوقف على النفس البشرية في حد ذاتها ومدى طموحها وقدرتها على إدراك معالم النهايات التي تستقر بها نفوسها المضطربة وتنتهي عندها أحلامهم .

وفما يختص بتلك الأحلام والغايات فقد وفقنا على بعض المحاولات الإنسانية التي سعت نحو تحقيقها إما في صور خيالية وإما بصورة مادية باقصة لا تشبع في حد ذاتها النفس الإنسانية الطموحة وإذا ما تعرضنا للاشتراكية العربية فأحق لنا أن نتبع مناهجها وخطاها ومدى توفيقها نحو إشباع متطلبات النفس المتعددة من حيث واقعها المادي والروحي كذلك مدى توفيق أساليبها نحو التنسيق بين غايات وسلوك أبناء هذا المجتمع في حدود قدراته وإمكانياته المتوفرة .

ومنذ أن انبثقت في الوجود أركان الاشتراكية العربية نرى أنها قامت على أسس فلسفية متطورة ارتقت بها حتى تمكنت من أن تثبوا مكانا بارزا في مجال الأنطلاقات الفلسفية العالمية متخذة لها سلوكا خاصا في الفكر وفي الحياة وفي التطبيق .

وتمكنت تلك الفلسفة من أن تبلور كثيرا من مراكز القوى ومصادر الطاقات التي كانت مستترة في بيئتنا المصرية وجعلتها شفافة واضحة يسهل للعقول استدراكها والكشف عن مواطن وجودها وسبل استغلالها من أجل الصالح العام .

وقد اعلنت الاشتراكية العربية من خلال سلوكها على أن كل منهج من

مناهج تكوينها يرتكز على الحرية الفردية ومن أجل الفرد نفسه وبالتالي من أجل المجتمع بأسره كما وانها تداركت منذ انطلاقتها حتمية تحرير الانسان تحريرا كاملا من سلطان العلم المحدود ، والاخلاق التقليدية المستوردة والتاريخ الذى تكتب سطوره بأيدى مزورة .

تداركت الاشتراكية العربية ان الانسان دائما فى حاجة الى قيم ومعايير تتحجم فى احساساته وعواطفه ، وبالتالي تؤثر على سلوكه وتكوين ملامح متطلباته الأساسية ومن هنا عبرت الاشتراكية العربية عن مقاييس تنبثق من خلال احساس خاصة هى فى مضمونها أرقى وأسمى من المعارف الشخصية والامكانيات الفكرية المحدودة ، أو الادراك الذاتى الفطرى ، وانما وجدت هذه الاحساسات لتربط بين جوهر الموجودات الى حيث وجودها المادى أو الفعلى الحقيقى وتستند فى هذا الارتباط على مقاييس سامية ترتبط والمبادئ الانسانية والقيم الاخلاقية التى تعبر عن الجوهر السامى للوجود الانسانى عامة

وعليه فالاشتراكية العربية جاءت تعتمد أولا وقبل كل شىء على التجربة والتاريخ والملاحظة العلمية والدراسات الميدانية . فجاءت تعبر عن تجارب هى مجموعة من الأفكار تتولد فى الفكر الانسانى وتتكون من خلال دائره معارفه الخاصة ومدى احتكاكه بمجالات التعامل المختلفة وتشتمل فى مضمونها على عناصر العلم والفن والقيم الدينية ، ودراسة لطبيعة احوال البشر بتحليل دقائق تفاصيلها . فتبلورت وكأنها تعبير صادق عن ماهية الانسان وكيف يتأثر ويؤثر فى البيئة الحاوية له .

ومن هنا جاءت المرونة فى اشتراكيتنا فهى تستهدف الرقى الانسانى فلا شك أنها تستقترن بالعلمية التى هى السبيل الوحيد للوصول الى ارقى المستويات وأكثرها تقدما وخصوبا ولكن ايماننا بالاشتراكية العلمية كأساس فى مذهبنا الاشتراكى لا يعنى هذا اعتبار جميع أركانها وأسسها وقواعدها مجرد قوانين

ثابتة متجمدة لا تقبل الحركة والتطور وإنما لها خاصية الانسجام مع اختلاف الأوضاع باختلاف الزمان والمكان ومع ما يفرضه الواقع عليها وتجبرها الظروف لا تحتاج منهج معين ولا تواجه الواقع بفكر ونظريات مغلقة يقيد ما لديها من قدرات وامكانيات .

فاشتراكيتنا العربية لم تنبثق الى الوجود مقترنة بالأفكار والمذاهب الخيالية التي تسمو بأصحابها عن حقيقة وجودها المادي وتغابر الفترات الواقعة عليها وتجهلهم يعيشون في عالم الأحلام والتمني كما وانها لم تأت لتقيم نفسها على فلسفات مادية بحتة وتهدد القيم الروحية التي هي جزء لا يتجزأ من الكيان الانساني .

فجاءت اشتراكية تستهدف تكامل كل من الجسد والروح كلاهما في نماء متوافق وان يتم الاصلاح بالاعتناع والتراضي لا بالعنف أو الأرهاب - جاءت اشتراكية تهدف لمجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع بضمن خلق الحياة السعيدة المتكاملة وارساء قواعد الديمقراطية والجريئة والمساواة فجاءت تجربة ضخمة رائدة متكاملة لم يسبق لها مثيل في الدول النامية الحديثة عـبرت عن وجودها بمذاهب واضحة صريحة تستهدف التقدم المنشود .

الإشتراكية والحرية

الحرية في مضمونها العميق ومعانيها السامية ما هي الا تجسيد وتعبير صادق عن حقيقة النفس البشرية وهي ما تنشده منذ وجودها ، ومحور تفكيرها من حيث حساسية وجودها من كافة المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقائدية .

وبالرجوع الى حقيقة الانسان نجد أن حرته تتبلور في مدى ابراز قيمة

وجوده وفكره كذلك على مدى تحرره من كل قيد والابعد التي تسمح له
بالانطلاق والعمل .

فالإنسان يحتاج في وجوده الى حريته لكي يدرك كيانه وذاته ، وقيمة
هذا الوجود هي مقدار انطلاقه من وراء بحثه عن حقيقته والقضاء على عبودية
الذات - وهكذا فالحرية هي مقدار ما يصل اليه الفرد من حيث اعلاء سلطته
الشخصية والروحية والفكرية وسيادة العقل والوجود الانساني على باقي
الموجودات المحيطة به .

والمشكلة التي دائما وأبدا يصطدم بها الإنسان هي الكيفية والوسيلة التي
تمكنه من الحفاظ على تلك المعاني وتوافر معالمها في نطاق وجوده . فليس هناك
معنى للحرية ، والإنسان مقيدا ومكبلا بالقيود السياسية والاقتصادية
والاجتماعية .

فهذا مما لا شك فيه ما يهدد من قيمة الشخصية الإنسانية والقيم الاخلاقية
والتعاليم السماوية .

ومن هنا جاءت الاشتراكية العربية تمجد الحرية في أعرق معانيها وتجعلها
مقترنة بالإنسان باعتباره كائنا ماديا والروح تدل على وجوده . وتبعا لكون
النفس البشرية قد تنقاد من وراء الوجود المادي والروحي بلا تروى أو تعقل
وتصبح الفوضى بدلا عن معاني الحرية السامية .

ولهذا فقد عمدت الاشتراكية العربية الى احترام كافة تلك المتطلبات المادية
والروحية ومنحتها آفاقا متباعدة تسمح لانطلاق الشخصية الفردية والمكن في
نفس الوقت وضعت القيود الحابكة والضابطة للسلوك الانساني لتحول دون
انحرافه عن مبادئ الحرية الخالدة من حيث عدم السماح باستغلال الإنسان
لأخيه الإنسان .

الاشتراكية والتطور

الاشتراكية العربية تؤمن بالتطور ، أى تؤمن بجمعية الانتقال من مرحلة متأخرة الى مراحل أخرى أكثر تقدماً وازدهاراً . ولكنهم لا تواجه تلك الظاهرة بأفكار متجمدة وآراء صلبة كبعض النظم والمذاهب التى انتهت بادمائها بأن ما تدعو اليه ما هو إلا سدره المنتهى بالنسبة لتطور النظم الانسانية .

فالاشتراكية العربية تعبر عن نفسها بنظام عادل ترتقى به الانسانية وتتطور من مراحل تسود فيها مظاهر الاستغلال والاحتكار والانعزال والسلبية والتخلف ، الى آفاق تعلوها يسود فيها الاستقرار والتفاعل الاجتماعى الايجابى والعدالة الانسانية ، تزول فيها مظاهر الانعزال من وراء أسوار التخلف والتقوقع ، وأنها تندد بالجمود والسلبية أمام مظاهر الاستغلال وتدعو الى تمجيد الحرية والمساواة والأخاء الاجتماعى .

اشتراكية تؤمن بأن التطور لا يتبلور معاملة إلا بفهم الانسان حقيقة نفسه . وحقيقة متطلباته ومشاعره ودوافع سلوكه وهذا بالتالى ان يتحقق إلا بتطور الانسان وارتقائه وتحرره من عبودية الجهل والتخلف والانكماش .

وعليه فالتطور الحقيقى ما هو إلا الانطلاق نحو مزيد من الكمال بمزيد من الادراك والفهم حتى تتمكن الانسانية من الوصول الى الجوهر الذى تتطلع اليه وتشعر من خلاله بالاستقرار والرفاهية والكمال .

الإشتراكية والمساواة

لقد وجدت الانسانية فى حالة من المساواة من حيث العقل والروح والنفس وبالتالى تلاقت حول جوهر أصيل من حيث الوجود الانسانى عامة .

فلاشتركية العربية قد تعرضت لتلك القضية بتبسيط عادل ودراسة مستوفاة ولأعمق معاني الانسانية وجوهر وجودها الحقيقي والسنين التي تسير الحياة على منوالها .

فلا شك أن مبدأ التسوية ليعد من البواعث الأساسية للحياة المتكاملة حيث أنها تهدف الى توسيع أبعاد النمو الفردي وبالتالي التقدم الاجتماعي ، وفي نفس الوقت قد تؤدي الى حالة من الانحلال الفردي والانحطاط الاجتماعي اذا ما تدارك مفهومها على نمط خاطيء شاذ يتنافى والقواعد الاخلاقية السامية فلو تعرضنا لمضمون كلمة « المساواة » فهل هي تعني مجرد المساواة المطلقة ، اللاحدود لها أم هي تعني المساواة في الحقوق فحسب أو في الواجبات الانسانية بصفة عامة لا شك أن هذا السؤال قد يؤدي بنا الى عدة تساؤلات عن غاية تحقيق هذا المبدأ في نطاق المجتمع وما هي الحدود التي يجب أن تنتهي اليها وتصل الى أبعادها مع العلم بأنه لا تتوفر لدينا مقاييس للعدالة أو المصاحبة المأمة أو الخير العام .

ووفقا لعدم توافر تلك المقاييس تصبح قضية المساواة هي مشكلة الإنسان .

واننا لا ننكر أن المساواة حق من حقوق الانسان في نطاق البيئة الاجتماعية الحاوية له ولكن هل تلك المساواة من حيث وجوده المادى أو مساواة من حيث المفاهيم والقيم الروحية بصفة عامة ؟؟ .

هذا هو محور تساؤلنا .

ولنا أن نلقى الضوء على حقيقة الوجود الانساني ومدى شرعية تحقيق مبدأ المساواة بالنسبة له .

ابتدأت الحياة الانسانية بمساواة مطلقة باعمق معانيها وأسمائها ، وتطورت السنين وتعاقبت القرون وأصبحت المساواة لا تتحقق معالمها إلا في صورة مغلقة تنبأور في نطاق كل طبقة على هداها ويتبع هذا أبعاد معينة للتفكير البشرى

في حدود تلك الطبقة .

وعليه فأصبح هناك مفاهيم تلتقي عندها الفئات من حيث تطلعاتهم الاجتماعي نحو السعادة والرفاهية والاستقرار المادي والروحي ، ومن هنا نصطدم بحقيقة رهيبة من حيث جوهر تلك المفاهيم فنجد أنها تختلف في الأبعاد والمظاهر من فئة لأخرى وبيئة لأخرى فكل فئة تعيش في حدود طبقتها ترفع شعارات ومفاهيم بقدر امكانياتها وقدرتها التي تمكنها من تحقيقها وتوفير مظاهرها .

وخلال هذا الصراع نجد تلك الفئات المحرومة لا حرية لها ولا مساواة إلا في التطلع والتمنى ، والواقع يحد من تطلعاتها ويكبت من أمانيتها ويشل من طاقاتها وقدراتها نحو التحرر من قيود الطبقة الحاوية لها .

ومن هنا جاءت الاشتراكية العربية بفلسفة خاصة آمنت بمساواة البشرية من حيث القيم والمفاهيم والمتطلبات الأساسية وجودها ، واستنكرت تلك القيود التي تحد من تطلعات الفئات المحرومة وجاءت بمفهوم خاص للمساواة من خلاله يكرم الفرد ويحد من الاستغلال ويحترم الغرائز والنزعات وتوفق بين هذا كله وامكانيات الدولة فيجاءت المساواة : —

١ — تسمح بحرية التطلع وفقا للغرائز الأساسية الكامنة في النفس البشرية وتهرخ في أعماقه من أجل اشباعها .

٢ — آمنت بالمساواة في الحقوق الطبيعية البشرية من حيث الحفاظ على الانسان من آلام المرض وحرمان النفس وحقه في الاستقرار المادي والروحي .

٣ — تحترم ما في النفس من حب التملك التي تعتبر من الغرائز التي وجدت منذ خلق الإنسان وإنما بشرط ألا تتعدى على حريات الآخرين أو تستغلهم .

٤ — آمنت بأن ممارسة التسوية قد تؤثر في التقدم أو الانحطاط وهذا بالتالي يتوقف على نوع هذه التسوية ، وعليه فقد راعت عند اعلاء راية المساواة أن يكون هناك تقدير لحكمة الخالق من حيث خلق الناس متفاوتين في أحوالهم

واستعداداتهم وطاقتهم وميولهم .

فمنهم ذوى القدرة على العمل الخلاق ومنهم الخاملون ، وتتفاوت درجات الذكاء فيما بينهم من حيث العلم والمعرفة ، ومنهم من يقبعون ويستسلمون للجهل والانحزال ومنهم العباقره ومنهم العاديون .

وفى قول الله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

وهكذا فالمساواة فى الاشتراكية العربية دعوة تقترن بالعدالة الاجتماعية لا تستهدف ما هو خارج عن حدود وامكانيات الطبيعة البشرية ، وإنما تبغى للتساوى فى كافة الفرص التى تماوتت تبعاً لظروف غير عادية وأوضاع شاذة وهكذا جاءت الاشتراكية العربية تؤمن بأن الافراد تتساوى جميعاً من حيث حقوقهم الطبيعية واحتياجاتهم الأساسية ، وجعلت هناك المفاهيم والقيم لحياة أكثر رفاهية ولكنها فى منأى لا يصل إليها إلا من تحكم فى سلوكه وغرائزه وراعى ضميره فى سلوكه ، وآمن بالعمل المسند اليه وأظهر احترامه للانسانية بصفة عامة .

ويجب ألا يبعد عن أذهاننا بأن تلك العبادة التى تنبئ بأن جميع الناس يخلقون سواسية من حيث الواجبات والحقوق لا يمكن اعتبارها قاعدة عامة وإنما فى واقعها أن الناس جميعاً سواسية أمام الله وأن أرواح الناس لها نفس المرتبة ونفس التقدير عند الله سبحانه وتعالى ، وعلى كافة المجتمعات البشرية أن تحترم هذا المخلوق الذى صنعه الله - ولكن اذا ما كان هناك تعميم فى تطبيق مضمون تلك العبارة فسيكون هناك مجال خصص لوجود أولئك العاجزين والمنافقين والمتطفلين .

الاشتراكية من حيث السلبية والايجابية

الاشتراكية العربية كفلسفة انطلقت لتسمو بالوجود الانسانى من كافة مظاهره ولا شك أنها قد جعلت لها قيماً سامية تحتم على تلك البيئة الاجتماعية

أن تتقرب نحوها بالقدر الذى يحقق غايتها ومفاهيمها التى تستهدفها .

والاشتراكية بما لديها من قدرات على اعطاء صفة خاصة للسلوك البشرى ومظاهر التعاملات المختلفة فانها قد اتخذت لها موقفا واضحا صريحا من حيث سلبية السلوك والى ايجابيته وجعلته من الظواهر التى تعتبر مقياسا لمدى فاعليتها ونجاحها من قبل الجماهير .

والسلبية فى هذا المقام تعبر عن تلك المواقف الجامدة التى قد يتخذها بعض الأفراد كظاهرة من الظواهر التى تنظم علاقاتهم ووجودهم بصفة عامة سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية حيث أنهم يتقبلون ما يفرض عليهم من قوانين ونظم لا يقدمون شيئا إلا طاقاتهم المادية وأن لم تكن خوفا من العقاب فقد تكون مجرد السعى وراء متطلباتهم الأساسية من مأكل ومسكن وملبس .

ولكن فى الواقع فالاشتراكية العربية تدعو الى الإيجابية بأعمق معانيها وأوسع حدودها فهى تنشئ من تلك الفئات الإستجابة اليها عن إيمان وتقبل وتفهم لأصولها وغاياتها الإنسانية السامية - تطلب المشاركة الفعالة بالنقد الذاتى البناء والتعبير عن الارادات باقصى حدودها لأنها ستقابل حينئذ بالاحترام والتقدير إذا ما كانت صالحة تستهدف الصالح العام واما فقد تقابل بالمناقشة الحرة حتى يقف صاحبها على نواحي قصور ادراكه ويكمل مظاهر نقصه وثغرات تفكيره حتى يصبح هناك الترخام فكرى وعقائدى بين الفئات ويتم توحيد الثغرات التى بينهم ومواطن الضعف مما لا يمكن بعض الدخلاء المخربين من بث سمومهم وعرقلة الأنطلاق الجماعى نحو الرخاء والرفاهية والكمال .

الإشترائية العربية والحوافز

مما لا شك فيه أن الحوافز بمظاهرها المتعددة تعتبر استجابة واقعية لطبيعة النفس البشرية تبعا لما تتحكم فيها من نزعات وخواجات وغرائز متباينة تتصارع

في أعماقها وبالتالي فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنكر آثارها البعيدة أو تقلل من شأنها من حيث مدى تأثيرها الفعال على السلوك البشري بصفة عامة .

وعليه فالخوافز تعتبر من القضايا الهامة من حيث بحثها في النظم الاشتراكية التي تستهدف في مضمونها مجتمع الرفاهية والعدل والكمال ولن تتحقق مظاهرها الا بتشغيل كامل لكافة الطاقات المادية والبشرية المتوفرة لدى المجتمع لأبعد حدود لها وأقصى قدرات متوفرة لديها .

ومن هنا فالخوافز في مضمونها تعتبر قوة انتاجية دافعة تحمى الفئات العاملة على الانطلاق ورفع مستويات الانتاج وانتهاج سبل الابتكار والتفنين والابداع بما يعود عليهم بالرفاهية والكمال .

وهذا ما تصبو اليه النفس البشرية عامة فلنكي تزيد القدرة الشخصية للعمل ينبغي تطبيق نظام واسع من المميزات التشجيعية بصوره المختلفة التي تتغلغل في أعماق النفس البشرية وتثير من انفعالاتها ما يدفعها على الانطلاق نحو العمل بأسمى معاني التضحية ونكران الذات والاستقرار .

وتختلف الخوافز من مجتمع لآخر تبعاً للنظم التي تتداول من أجل تنظيم العلاقات الانتاجية والاستهلاكية في المجتمع ، فقد تكون في وجودها معبرة عن حوافز سلبية أو حوافز ايجابية .

والخوافز السلبية تعتبر من الأخطار الجسيمة التي تهدد كيان العمال في المجتمعات الرأسمالية والتي يصبح فيها الخوف السلبي هو الحافز على العمل من أجل ضمان الاستمرار فيه حفاظاً على ما يقيم أوده وبقية شر الجوع والحرمان والشاهل ، وتلك الخوافز السلبية بمعناها الانساني تنصدر النظم الرأسمالية والتي تعتبر السلاح الذي يلوح به صاحب رأس المال لينجبر الفئات على العمل حتى يزيد الانتاج وبالتالي تزداد ارباحه وتكس ثرواته وبمساعده على فاعلية تلك

الحوافز وجود جيوش من العاطلين ينتظرون من تنهار قواه وتشتت طاقاته وقدرته على العمل في ظل هذا الاستعباد ليتهافتو على احلال مكانه في ظل السخرية . . وبهذا لن يكون هناك حاجة الى صاحب رأس المال للتفنين في اغراء العامل أو حتى مجرد افناعه بهذا العمل أو الألتجاء الى الحوافز الايجابية من زيادة في الأجور أو المكافآت الإنتاجية ... الخ .

أما الاشتراكية العربية فهي تتجه الى الحوافز الأيجابية بصفة تلقائية تبعاً لخصائصها الانشائية الكريمة الخالدة فهي تؤمن بأن سياط الجوع والحرمان والارغام بالقوة ووسائل الارهاب لن تكون في يوم من الأيام الدعائم التي تقوم عليها العجالات الإنتاجية فيادين العمل لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تصبح معسكرات تساق اليها الفئات العاملة تحت رهبة الجوع والحرمان وانما لها شعورا غريزيا نحو الحرية الفردية تكون شعار الرباط المقدس الذي يربط ما بين العامل وعمله حتى يصبح العمل باعثا على السرور في نفوسهم بدلا من أن يكون عبثا وثقلا تنوء تحته ظهورهم .

فالاشتراكية العربية تتجه لخلق روح الابتكار ونكران الذات في نفوس العاملين بعد أن تضمن لهم أسباب الحياة ، وتطرد عن أذهانهم كل شعور بالقلق بالنسبة لمطالب المستقبل المادية ومن حيث تأمين المستقبل بخلق الاطمئنان التام من حيث المعيشة فهي قبل أن تبجده على العمل تضمن له احتياجاته اليومية له ولأسرته وبهذا تخفف الرغبة وتسلط سلطان جمع الثروات وتكديسها ويتجه كل فرد نحو التمتع بمباهج الحياة بدلا من الصراع لأجل توفير فرص الحياة . ومن هنا تنبثق الى الوجود الرغبة في الاجادة والابتهاج في العمل الخلاق والطموح الى الارتقاء والتحسين والإهتمام بكسب احترام المجتمع .

والاشتراكية العربية في نفس الوقت لا تترك ثغرات في نظمها يمكن أن يتسلل عن طريقها بعض الكسالى المقامرون أو المتطفلون فنظم المكافآت والأجور لا يمكن أن تكون مجرد اشباع احتياجات الأفراد بعد المساواة فيما

بينهم من وسائل الراحة والخدمات التعليمية والصحية المجانية الى غيرها من الخدمات العامة واصبح بهذا نظام تحديد المكافآت والأجور أكثر ارتباطا بالنتيجة كل عامل من العمال هذا بعد انطلاقتهم نحو العمل من خط متساوي وفرص متكافئة .

وأصبحت التفرقة في جداول الأجور تبعاً لمدى المهارة والضمير في العمل والقدرة على الاستمرار فيه وبهذا يصبح كل فرد في مجاله يطمح في الوصول الى مستويات عليا من المهارة لتحسين مستواه في العمل لما يترتب عليه زيادة في أجوره التي تفتح له آفاقاً أكثر إشعاعاً وأبعد حدوداً للتمتع بمباهج الحياة ومظاهرها .

الاشتراكية العربية بين المادية والروحانية

عندما نستقرئ في الحديث عن الاشتراكية فاننا لا نهدف الى مجرد تنسيق بعض الكلمات لخلق تعبيرات جذابة أو لمجرد جذب العقول نحوها وخلق استجابة مصطنعة من قبل الأفراد حول مبادئها وأركانها .

والكنى انتهج في بحثي هذا عرض مناظرة عامة ما بين احتياجات التطبيق الاشتراكي وأركانها ومدى انقائه والآمال العريضة للبشرية ، والحمية التاريخية التي فرضتها الطبيعة المتغيرة للانسانية على مر السنين والأجيال - كذلك على مدى استمدادها لأصالتها وفروضها من خلال تطلعات الجماهير الواسعة نحو مجتمع أفضل ، يجتمع الرفاهية والعدل والكمال .

فالاشتراكية وان كانت مجرد نظام اجتماعي اقتصادي سياسي إلا أنها قبل أن تكون هذا فهي فلسفة عميقة تستجيب لكل من جانبي الوجود الانساني عامة من حيث واقع المادى والروحى أى أنها فى حد ذاتها فلسفة متكاملة أصيلة مستقلة لها أركانها وقيمتها ومفاهيمها - تمتص من الفلسفات المثالية كل ما يمكن جماله وانعيا وتستجيب له الانسانية ثم تتجه الى الفلسفات الواقعية المادية وتتفاعل معها وتنتقي من أسسها وقواعدها وقوانينها كل ما يقبل الحركة والتطور ثم

تدخل عليها من التعديلات ما يفرضه عليها الواقع بتقاليده ومفاهيمه وتجاربه المتوارثة وظروفه المتغيرة وضروراته المادية وحوائفه الروحية والمعنوية .

ومما لا شك فيه أن الانسان قد يعيش في دوامه من الانفعالات والاضطرابات طالما أنه لا يفهم جوهره والسبل التي تؤدي اليه - كذلك اذا ما اتجهت الانسانية نحو تفسير الموجودات المادية فحسب فانها ولا شك ستقع في عدة تناقضات وتنتهي بها الأوضاع الى الضلال والفوضى فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تصبح الحياة المادية هدفا فحسب وإنما يجب أن تقترن بالكيان الانساني الذي هو جوهر الانسان الروحي والعاطفي ، وتنعكس عليه اصالة الفكرة الالهية فالانسان له من الوجدانات الخالدة ذات خصائص معينة ومطالب ذاتية تلزم وجود اساليب تتفق وهذه الوجدانات والاحاسيس فاصالة الفكر الاشتراكي العربي ينبع من كونه فلسفة تعبر عن النفس البشرية وتستهدف تطوير شخصيتها ووجودها تطويرا كاملا قائما على دراسة علمية للطبيعة البشرية وتقدير ما لها من غرائز ونزوات ومشاعر وأحاسيس ومتطلبات تستتبع هذا التكوين .

وعليه فالاشتراكية العربية لا تنشأ مجرد الإسترسال في أقوال خيالية بعيدة عن الواقع وإنما تخرج ما بين المثالية والواقع وتظهرها معا في بوتقة الحياة الواقعية لتخرج لنا صورة فريدة متكاملة تعيد الأمل لكل ممن قضى عليهم اليأس والجنود لأنها تؤمن بأن الحياة لا تزال قادرة على أن تبدأ من جديد من خلال المنطق والتفكير السليم الذي على أساسه يمكن التعرف على ظروف المجتمع وأوضاعه فنزيل ما يعوق انطلاقها وتنسق بين عوامل التقدم المتباينة حتى تتمكن من تحقيق غاياتها الانسانية ويتمكن أبنائها من الإرتقاء والانطلاق نحو مجتمع الرفاهية والعدل

وهكذا فالاشتراكية العربية هي آخر مطاف الصراع الانساني وما وصلت إليه الانسانية نحو تحقيق نظام أفضل وحياة كريمة .

المراجع

- ١ — الحركات الاشتراكية | تأليف هارى و. ليدلر
| ترجمة الاستاذ محمد ماهر نور
- ٢ — علم النفس | تأليف الدكتور عبد العزيز القوصى
- ٣ — الماركسية السوفياتية | تأليف هربرت ماركوز
- ٤ — علم الاجتماع | للدكتور محمد عاطف غيث
- ٥ — العلاقات الاقتصادية الدولية | للدكتور محمد لبيب شقير
- ٦ — الحرية | تأليف جون ستينوارت ميل
- ٧ — السلطة والفرد | تأليف برتراند راسل
- ٨ — قادة الفكر الاشتراكي | للدكتور جلال حسن صادق
- ٩ — تطور الملكية الفردية | للدكتور أحمد محمد غنيم

كتب ظهرت للمؤلف

١ - عقيدتنا الثورية بين النظرية والتطبيقية
« الدار القومية »

٢ - الصراع الفكري بين المادية والروحانية
« دار لوران للطباعة والنشر »

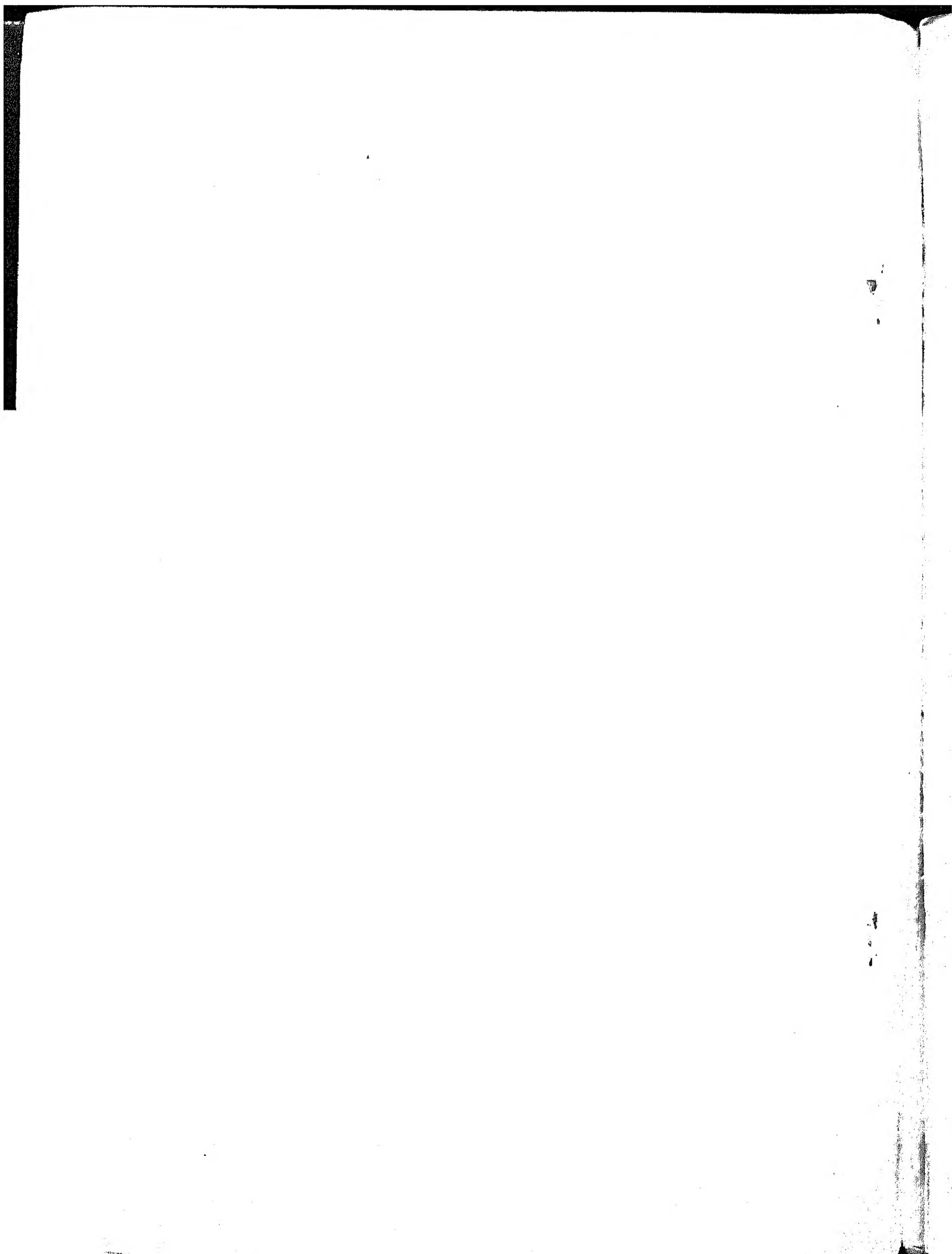


كتب تحت الطبع

١ - الدولة الاخلاقية

٢ - « المتاهة » قصة اجتماعية هادفة

٣ - الرجل والنمل - قصص صغيرة



٢٥

الناشر

